
محمد عبد الحليم عبد الله

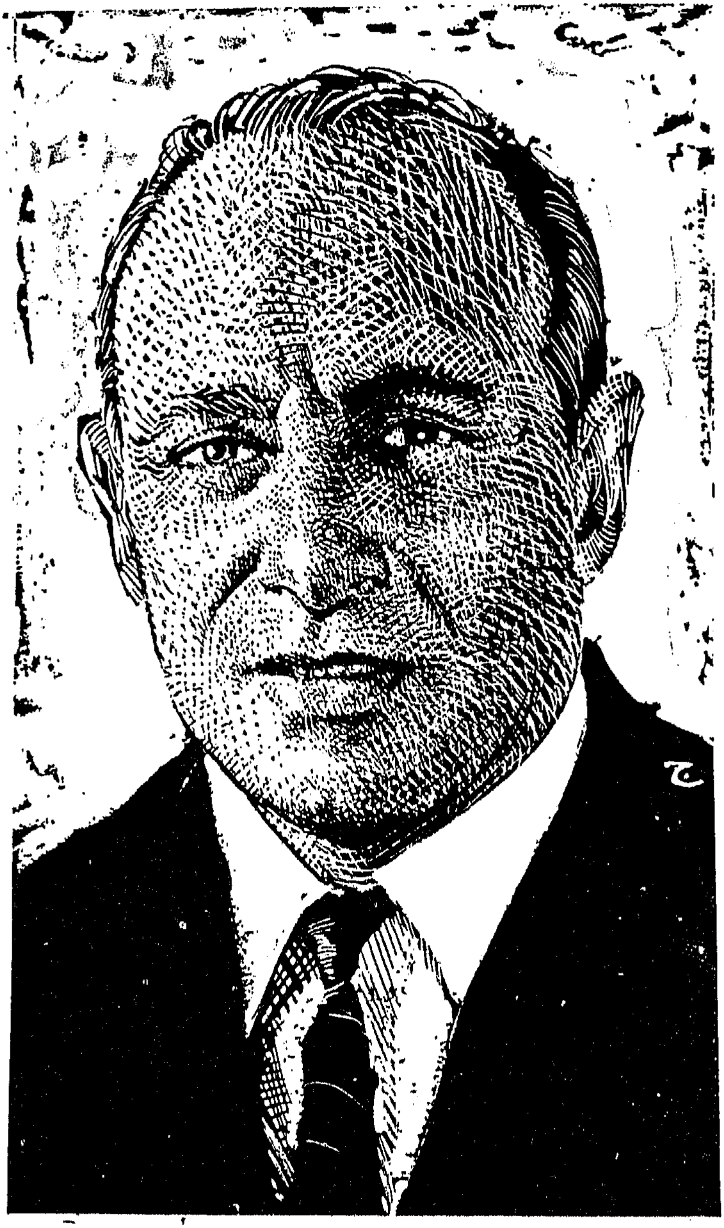
قصة لم تتم

تاليف

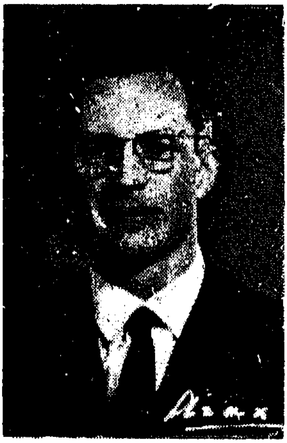
محمد عبد الحليم عبد الله

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه



روائى الدلتا



دراسة بقلم

المستشرق الأب الدومنيكى جوردان موتو

نقلها إلى العربية

سمير وهبى

مقدمة للمترجم :

نشرت هذه الدراسة فى المجلد الثامن لمجلة ميديو ، الصادر فى عام ١٩٦٦ . ويقول المؤلف فى بدايتها بأن فى مصر مجموعة من الكتاب جعلت هذا البلد مرتعا خصبا للرواية العربية . ومن هؤلاء : نجيب محفوظ ، ويحيى حقى ، وعبد الرحمن الشرقاوى ، وإحسان عبد القدوس ، ويوسف السباعى ، وأمين يوسف غراب ، ويوسف إدريس . وهذه القائمة لا تحصر الأسماء . وفيها يجد اسم « محمد عبد الحليم عبد الله » المولود فى ١٩١٣ مكانا بارزا . فقد كتب حتى الآن تسع روايات . هى على الترتيب : لقيطة (١٩٤٦) ـ بعد الغروب (١٩٤٩) ـ شجرة اللبلاب (١٩٥٠) ـ الوشاح الأبيض (١٩٥١) ـ شمس الخريف (١٩٥٢) ـ غصن الزيتون (١٩٥٥) ـ من أجل ولدى (١٩٥٧) ـ سكون العاصفة (١٩٦٠) ـ الجنة العذراء (١٩٦٣) .

هذا إلى جانب ست مجموعات من القصص القصيرة هى :

الناقذة الغربية (١٩٥٤) ـ الماضى لا يعود (١٩٥٦) ـ ألوان من السعادة (١٩٥٨) ـ الضفيرة السوداء (١٩٦٢) ـ أشياء للذكرى (١٩٦٤) ـ خيوط النور (١٩٦٥) .

ووقع اختيار المؤلف على روايته « الجنة العذراء » ، و« شمس الخريف » لتلخيص وقائعها بالتفصيل ويعلل اختياره هذا بأن الأولى تمثل أحدث ما كتب من روايات . أما الثانية فلأنها توسّع مدى رؤيته عند تقييمه لرواياته (٢)

وبعد تلخيص واف لوقائع الروايتين ، أفرد المؤلف جزءا ثالثا من دراسته تناول فيه المفاهيم الأساسية والسمات البارزة فى الإنتاج الروائى لعبد الحليم عبد الله ، ناظرا إليه من الزوايا الآتية : البطل ـ معنى الحياة ـ المرأة ـ الدين ـ المجتمع ـ وأخيرا الشكل الأدبى .

الجنة العذراء

« كان قمر هذه الليلة لم ينهض بعد من الأفق ، والوقت صيف ، والليل قد جاوز منتصفه بساعة على الأقل ، ودور العزبة المطلة على الحقول قد هجعت بكل ما فيها .. حتى الطيور فى الأكنان والمواشى فى الحظائر كانت قد استسلمت لنعاس لطيف مع نسيم شهر يونيو الفاتر .

وهناك دار على الطرف الشرقى للمبانى نامت منذ وقت طويل .. ربما بعد أذان العشاء بساعة ، فيها غلام فى الثانية عشرة من العمر وأمه السمراء التى لم تتجاوز الثلاثين ، وليس معهما بعد ذلك فى الدار إنسان ولا حيوان .. إذا استثنينا الدواجن .

وكان « رضا » فى هذه الليلة ينظر إلى أمه بإعجاب الابن كأنما رآها للمرة الأولى فبعد أن تناولا عشاءهما استلقى هو على الحصير الذى فرش فى الساحة فرارا من الحر وأخذ يستمع إلى حديث أمه الهامس وعيناه تحملقان فى النجوم .. فى سماء صافية وليل ساكن فى الوقت الذى جلست فيه الأم فى جلباب من الشيت الأبيض .. قديم قطع كماه بعد أن بليا فظهرت ذراعاها البضتان فى هيئة تدل على الصحة ،

ورمت بمنديل رأسها ثم حلت شعرها وقربت طشتا وأخذت فى غسيل شعرها وتمشيطه وهى تتحدث إلى ابنها عن تاريخ حياة كان من الممكن ألا يقع .

كان بالنسبة إليها مجازفة مشروعة .. وقصة كأن أبطالها ملائكة وشياطين .

وكان معظمها منصبا على أبيه ..

وكانت تتكلم عنه بحنان . كان « رضا » يتعجب لوجوده ثم يسأل نفسه فى تجاهل يكاد يضحك منه :

ـ هل أبى موجود ؟!

ويجىء الجواب من فم أمه المطرقة نحو وعاء الماء ومن خلال صرير المشط الذى يتخلل شعرها المجعد ونور المصباح المعلق فى ركن من الساحة يرسم ظلالا من شعرها ورقبتها وزندها العارى . يجىء إليه صوتها الوانى دائما والهامس باستمرار يقول له :

ـ إنه فى صحة جيدة . أحسن من السنة الماضية .. لكن .. هل يفكر فينا يا رضا ؟!

وتتأوه وتحس حرارة أنفاسها وهى تلامس يدها التى تمشط الشعر .. وينقلب رضا على الوسادة ويدير ظهره لأمه لأنه بدأ يحس خدر النوم ويسترجع الساعات الأخيرة من النهار .. تلك التى قضاها فى اللعب مع « حسن » وأخته « بدور » ويتذكر نظرة البنية الفاترة بنت العاشرة وهى تقرصه من خده فى مداعبة قبل أن يفترقا .. ثم تسود فترة صمت

يسمع بعدها وعيناه مسبلتان - مع قرقرة دجاجة ـ أغنية حزينة تدندن بها الأم لنفسها ، ثم همس نسمة فى بعض أعواد حطب ينتهى بعدها كل شىء فى عالم المحسوس بالنسبة للغلام .. فينام (٣) .

ولكن المسكين لم ينم طويلا فقد أفزعته أصوات جعلته ينهض من فراشه فى تلك الليلة التى لن ينساها ما عاش .. لقد اكتشفت أمه فجأة إلى جانبها شابا تسلل فى ظلام الليل حتى غرفتها ، وإذا بها تصرخ طلبا للنجدة .. ويتدافع الجيران نحوها .. وسرعان ما يحضر « حمودة » ، الأخ غير الشقيق لرضا وهو معروف ببطشه وشدة سطوته فى القرية .. إن الأب ـ الحاج ماضى ـ متزوج من اثنتين ويعيش مع ضرتها .. ومن المظنون أن حمودة هو الذى دبر المكيدة لكى يتخلص من شركائه فى التركة المنتظرة بعد وفاة الأب .. ويبدو حمودة أنه غير مرتاح للشرح الذى قدمته زوجة أبيه عن وجود الشاب فى غرفتها ، فينهال بالضرب على كل من زوجة أبيه والشاب الدخيل .. تم كل ذلك أما أعين أهل القرية ، وأمام عينى الطفل الصغير الذى ملأ الرعب قلبه .. وبعد ثلاثة أيام ، نجد أن « بهية » تترك القرية مضطرة وهى التى تحب الريف .. رحلت بعيدا بناء على أمر جاءها من زوجها المريض الملازم لفراشه بسبب صرع قديم .. إنه رحيل امرأة نزلت عليها اللعنة.. ترحل هى وابنها ولا يقوم بتوديعها أحد سوى صديقى ابنها الصغيرين وقد جاءا ليقولا له الكلام التقليدى : « ستوحشنا ! »وسرعان ما يذهب بهما القطار إلى بعيد ، واختفى برج الحمام من الأفق !

وجاءت الضحيتان تطلبان السكن عند « بركات » وهو شقيق « بهية » ومهنة بركات قهوجى بمصر القديمة ..وهو رجل غريب الأطوار .. هو نفسه قد طردته القرية بسبب قصة سرقة .. غير أنها سرقة حقيقية .. فهل تراه اقتنع باحتجاجات البراءة التى ساقتها أخته ؟ لن نعرف إجابة شافية على هذا السؤال ! غير أن هذا الرجل المجرب سوف يتلذذ بذكر مثل شعبى يتناسب مع مقتضى الحال ، فيقول : إن سرقت فاسرق جملا ، وإن عشقت فاعشق قمرا (٤) .

وعلى العموم ، فإن بركات شقيق طيب ، وسيجد فى دفء الأخوة ذلك النور الذى يغمر حياته بالطيبة والنظافة وينتشلة شيئا ما من العالم الغريب الذى دفعته إليه الظروف .. هذه القهوة مثلا .. لقد بدأ حياته فيها صبيا يلبى طلبات المترددين عليها .. ولكن حدث أن زوجة المعلم كانت تحب .. صبيان القهوة الأقوياء ! وكانت النتيجة أن قاسمها سريرها قبل أن تصبح أرملة .. اقتسم معها القهوة فيما بعد .. ونظرا للظروف المحيطة بالمهنة ، فقد عمل بالتهريب ، وتضاعفت ثروته .. وهذه النقود التى اكتسبها ، سوف يستخدم جزءا منها ليصرف على أخته وابنها .. وسيتجه ابن أخته إلى الدراسة فى المدارس الليلة وسيعمل فى مطبعة .

وبعد ذلك ، سوف ينتقل الابن مع أمه للسكن فى شقة متواضعة تقع أعلى منزل بفم الخليج .. وتدور حوادث الرواية فى وقت هجوم رومل على مصر وكانت العاصمة وتتئذ تعج بقوات الكومنولث ..

وأصبحت الغارات كثيرة .. وفى أثناء واحدة منها ينزل رضا وأمه إلى المخبأ .. وفى أثنـاء ذلك يتـعرفـان عـلى فتاة دمثة الأخلاق اسمـها « ثريا » .. ويقع الحب المفاجىء بين رضا وثريا .

وفى هذه الأثناء تصل إلى رضا أخبار من القرية .. والذى سينقلها إليه هو صديق طفولته « حسن » الذى يعمل الآن سائقا عند حمودة .. وكثيرا ما كان رضا يفكر فى القرية ، وخاصة فى والده العـجوز المريض ..فيعلم أن حمودة ينوى الزواج مرة ثانية .. وفـى أثناء الاحتفالات التى أقيمت فى القرية يتسلل رضا إلى هناك ولا يتعرف أحد على هذا الأفندى المطربش الذى ترك قريته صغيرا .. وذهب إلى زيارة والده وهو مدفوع بالغريزة .. إنه مريض لا يتحرك من حجرته بينما القرية كلها فى أفراح من أجل زواج حمودة الذى سوف يصاهر عائلة ذات سطوة .. أما الرجل العجوز فإنه يعيش فى عزلة .. ويتسلل رضا إلى حجرته مدعيا أنه ابن لصديق قديم لوالده .. ولا يتعرف عليه والده . غير أنه فى حديثه يظهر حنينا جارفا للابن البعيد وشوقا زائدا نحوه ، بل وندما للفراق .. وينسحب رضا من عنده وقد ملأ التـأثر قلبه .

وبعد فترة يموت الأب .. وفى النعى لا يذكر حمودة اسم أخيه غير الشقيق .. وقبل ذلك بفترة ، أشاع فى البلد أن والده قد باع له كل العزبة .. وشعر رضا بضعفه إزاء كل هذه التصرفات ، وتردد فى اتخاذ الإجراءات القانونية فى مسألة شائكة ملتوية ، غير أن حبه لثريا والذى

قوت وشائجه أيضا محبته لوالدها « العم جابر » يدفعانه إلى عمل إيجابى .. وهذا العم جابر شخص لطيف المعشر يعمل سائق قطار ويحلو له طول الوقت أن يصب لعناته على الإنجليز .. إن صداقة رضا للعم جابر سوف تدفعه إلى اتخاذ الخطوة الحاسمة فى حياته .. لقد جعلته يقرر عرض القضية على الأستاذ البتانونى .

« ولم يكن يحمل خطة ، وكل ما دفعه إلى هذا الموقف هو شهرة الرجل فى الإقليم على حل المشاكل بطرقه الخاصة بسيفه أو ذهبه » .

وفى حجرة انتظار كبيرة جلس يرقب دوره بعد أن أكد للوكيل أنه جاء بمشورة أحد المحامين المعروفين فى القاهرة كان قابله هناك فأشار إليه أنه يأتى إلى الأستاذ البتانونى فهو وحده القادر على حل القضية.

كان « رضا » ينتظر فى حجرة كبيرة أقرب إلى دواوير العمد منها إلى شىء آخر ، فيها وجوه متناقضة وأزياء مختلفة : ريفى طويل الشارب يبدو عليه الثراء ومعه تابع فى كتفه بندقية ، ومتصوف بجبة وقفطان وعمامة خضراء ولحية فتية ووجه نضر ، وشارب مطرق فى تفكير مائل بعنقه إلى اليمين فى فمه غليون وينفث الدخان فى همود . وصوت امرأة يرتفع فى مكان ما غاضبا ، ورجال من كل نوع وسن .

كان الأستاذ البتانونى يعانى فضولا وقلقا على قضية مصر وهو الاسم الذى أطلقه وكيله على قضية « رضا » .. لأنها من أهم الحوادث فى تاريخ حياته المهنية .. وإذا جاز أن يجىء لعيادة الدكتور « نيقولا » فى هذه البلدة أحد المرضى القادرين فى القاهرة لإجراء

عملية جاز بالتالى أن يحدث هذا بالنسبة لمكتب الأستاذ .. لذلك كان من الضرورى أن يهتم بالأمر .

ودخل عليه « رضا » .

لم يكن فى الحجرة شىء أنيق ، كانت واسعة ظاهرة الارتفاع يتدلى من سقفها فى سلك معدنى مصباح أثرى يشعل بالليل ، وفى ركن قريب تأخذه العين موقد من النحاس فيه رماد بائت ، أما الأستاذ فقد قام نصف قومة وسلم على « رضا » الذى انحنى فى توقير وأمل، وأتيح له بعد ذلك أن يتبين طلعة الأستاذ : رجل فى الستين على التقريب طويل الوجه ريفيّه ، لا تبدو عليه كثيرا هيئة المتعلمين .. له شارب غزير الشعر .. مقصوص لم يتغلب عليه الشيب .. أسمر خافت الصوت ، يغمز بإحدى عينيه ويمصمص بشفتيه ، إذا وجد نفسه محتاجا لفرصة تفكير أو عاجزا عن الرد .

وجو الغرفة تفوح منه على العموم رائحة السمسرة أكثر مما تفوح منه رائحة البحث .

وحملق « رضا » فى لافتة كبيرة وضعت خلف ظهر الأستاذ فيها صورة ميزان ـ رمز العدل ـ وفوقها آية قرآنية : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » .. ثم سحب نظره ليلتقى بنظر الأستاذ فرآه متربصا كأنه صيد . وغمز بإحدى عينيه عدة غمزات ، ثم مصمص بشفتيه وأبدى ترحيبا ، وجد رضا بعده نفسه وقد انطلق فى الحديث :

ـ إن قضيتى هنا فى الريف .. وهى قضية بلا وثائق .

وسكت الشاب ونظر للميزان والآية ، ومصمص الأستاذ بشفتيه وأغمض عينيه فى هذه المرة ثم رد كمن يحلم :

ـ آخ قضية بلا وثائق .. هيه .. لا بد أنها من القضايا (إياها).

ـ القضايا إياها ؟!

وتلجلج الشاب وعاد فاسترد رشده .

ـ إننى على كل حال سأشرح الأمر على سعادتك .. إن الحق الشرعى كما قالوا لى ، لا يحتاج إلى وثيقة .. لكن .. أنا .

ـ أكمل يا بنى .. إننى أسمعك .

ـ كان أبى من أغنياء هذه المنطقة ، مات عن مائتى فدان لى أنا وأخى الكبير ، لكن أخى أغتصب حقى .. آ ..

ومصمص الأستاذ بشفتيه وغمز بإحدى عينيه بطريقة عصبية ، ثم سأل بلهفة:

ـ أنت من هنا إذن ؟ لكن الوكيل قال لى إنك من مصر .

ـ كلانا صادق ..

ـ عظيم ، ومن يكون المرحوم أبوك ؟

ـ هو الحاج .. الحاج « ماضى » ..

فرد الأستاذ كمن تذكر شيئا بعيدا :

ـ هيه إذن أنت ابنه الثانى ؟!

وأخذ يهز رأسه بحركة ظن « رضا » أنها لن تتوقف وهو يحملق فيه ، وعيناه نصف مغمضتين كأنه متعب ، ولم يستطع الشاب أن

يستنبط شيئا لكن فترة الصمت التى ظللت على الحجرة انبعثت خلالها كحة المحامى ورائحة رماد النار ، وصوت فرس يصهل على باب المكتب بانتظار أحد الزبائن ، ثم تبدد الصمت بقول الأستاذ بخفوت كأنه مناجاة :

قضية بلا مستندات .. نعم .. هيه ؟! وما العمل ؟!

سأله رضا فى قنوط :

ـ هل أفهم أن سعادتك على علم بالموضوع ؟!

ـ نعم .. نعم .. يا بنى ، فملاك الأراضى من طبعهم فى كل منطقة أن يحفظوا تاريخها كما يعرفون حدودها ، وأظن أن والدك رحمه الله كان قد باعها كلها لأخيك ..

وتنحنح ..

ـ كل هذا زور يا سيدى .. آه .. وهل سعادتك إذن تعرف ماذا كان أبى ؟

قال فى ابتسام :

ـ كان تاجر مواشى .

ـ وكان مريضا بالصرع ، ولعلك تعرف بقية القصة ، وأنا وأنا .. و .. أنا .

وأخذ الشاب يبحث عن ريقه ليكمل الكلام ، كان ريقه قد جف ، وطاف بخاطره ذكريات أمه وأبيه والطفولة والليلة التى لا تنسى .. ثم ليالى جوع ومخاوف .. وبدت صورة الميزان تظهر له من خلال الضباب

الذى فرضته الدموع وكان المحامى مطرقا يفكر وصهيل الفرس يأتى من الخارج كعلامة تستعجل الرحيل ، وفجأة وجد الشاب نفسه يبكى .

نظر إليه المحامى والدهشة فى عينيه وأخذته حركة عصبية فأخذ يغمز باستمرار ، ودق الجرس وطلب له شرابا دافئا ، ثم سأله بعد أن هدأ :

ـ هل أنت مستعد على الإنفاق على هذه القضية ؟

فأشار بالإيجاب .. فرد المحامى بصوت خافت :

ـ لكنى لا أريد مالا ..

فاستنار وجه « رضا » بالبهجة وبدت عليه براءة الطفل .

ـ وهل من المعقول يا سيدى أن رجلا مثلك .. (ولم يكمل حديثه) .

فتخايلت على شفة المحامى ابتسامة فذة ، هى وحدها التى بدت تحمل الأستاذية لأنها أشارت إلى معانى الخديعة فى ذلك الإنسان الذى يستمد قدرته فى هذا المكان من أرضه لا من مهنته .. وتنهد أخيرا وقال للشاب :

ـ قضية بلا مستندات تحتاج إلى إجراءات غير عادية .. نعم .. هل تفهم معنى إجراءات غير عادية ؟ ولابد أن تكون الأتعاب عينية .. آخذها بطريقتى ..

ـ عينية ؟! ماذا أفهم .. يعنى .. آ ..

ـ نعم .. لى عشرون فدانا من نصيبك الذى يقارب مائة فدان ..

وصهل الحصان كأنه جريح وترددت عين رضا بين الميزان والآية وموقد النار ، وذكر أشياء كثيرة كان أهمها « ثريا » ، وأحس طنينا فى أذنيه كأنه يغوص فى الماء وثقلا فى أوصاله :

ـ « يارب .. إنى أكاد أسقط على الأرض » .

ـ موافق يا بنى ؟!

ـ ...

ـ فكر .. ثم ارجع إذا أحببت .. إن الموضوع شائك كما ترى .. رحم الله والدك .. رحمه الله .

ودق الجرس فدخل الكاتب .. فطلب الأستاذ من عليه الدور . وخرج « رضا » (٥) .

وهذا المحامى الطامع الشره يذكرنا بإحدى شخصيات الروائى «بلزاك » الحية ، فى روايته « الابن عم بونس » .. ونتابع أحداث الرواية .. اختلف « حمودة » مع زوجته الشابة الغنية « زينب » والتى لم يستولدها أى ولد .. وقد عملت بدور ـ أخت حسن ـ على إذكاء نار الخلاف بينهما لأنها تعمل فى خدمة زينب ، فاستغلت هذا الوضع لكى تكيد لها .. إن عائلة زينب تضمر الشر لحمودة وتفكر فى الانتقام منه لأنه يفكر فى مصاهرة عائلة أقوى سلطانا من عائلة زوجته الأولى .

وهكذا ينتقل القارىء إلى وسط الحوادث العاصفة التى يعرفها الكثير من أهل القرية ، بما فيهم المحامى وقد استغلها المؤلف ليغوص بواسطتها فى أعماق الشخصيات ، لكى يكشف لنا عن أبعادها

السيكولوجية والاجتماعية .. غير أن الآمال جميعها لا تتحقق ، فإن حمودة سوف يكون ضحية هجوم عنيف ومدبر .. سوف تصله باستمرار خطابات من مجهول تأتيه بقصاصات ن الجرائد تروى له قصصا إجرامية .. ولا يقف الأمر عند ذلك وإنما تتصاعد الإشاعات من كل جانب لتتهمه باغتصاب العزبة .. ويستغل حسن هذا الجو المسموم لكى يلقى فى مسامعه مثل الثعبان الماكر بإشاعة من الإشاعات التى تملأ الجو ، وهى أن زينب ـ رغبة منها فى الانتقام منه ـ قد استبدلت بسند الملكية سندا آخر مزيفا .. ويتكهرب الجو ويظل حمودة طول ليله لا ينام وهو يفتش عن السند الضائع ولا يجده .. إنه يجهل بأن العنكبوت المخيف قد بدأ بطريقة محكمة ينسج خيوطه حوله ، خيطا خيطا ، لكى يقع فى براثنه .. وها هو المقدر يقع .. فإنه يلقى بنفسه وسط المعمعة .. أى فى مكتب الأستاذ البتانونى ويحكى له كل شىء !

وينتصر المحامى اللئيم فى النهاية وهو يغمض عينيه سرورا .. لقد جاء دوره ليتدخل وليسوى الأمر بين المتنافسين .. سيصل إلى اتفاق سيكون هو أول مستفيد منه .. فإن القضية الآن أصبحت بدون مستندات مكتوبة .. وهذا هو ما كان يهدف إليه ..

وليت الأمر انتهى بالنسبة لحمودة ، فإن طلقة نار من مجهولين قد أتت لتضع حدا فاصلا لحياته .. فاغتالته يد الانتقام قبل أن يوقع عقد الصلح بليلة واحدة .. ولا يبدو غريبا أن تكون لعائلة زوجته يد فى الموضوع .. وينتهى الأمر بأن تؤول ملكية الأرض جميعها إلى رضا

وقد عادت إليه حقوقه الشرعية .. ولكن للأسف ، قبل أن ينتهى له هذا الانتصار ، حدثت مأساة حطمت شبابه .. ثريا .. حبيبته ثريا .. لقد خطفها نفر من عساكر الإنجليز السكارى .. ولن يعرف أحد أى خبر عنها .. وسوف ينتقم رضا بأن يقتل مصادفة عسكريا انجليزيا .. ولكنه سيكون وحيدا عندما يجد أرضه الضائعة التى حرم منها طويلا .

* * *

وعلى تلك النغمة الحزينة ستجد الرواية نهايتها الغنية بالأعماق الإنسانية .. إن البطل قد وقع بين فكى كماشة هائلة : ظلم الإقطاع واحتلال البلد .. والجنة العذراء هى أرضه التى ولد بها فى العزبة .. ولحصوله عليها سيعانى انتقاضات مأسوية ستترك بصماتها عليه : وفاة والده وحيدا .. واغتيال حمودة .

إن الجنة العذراء هى ثريا أيضا .. وستظل هذة الجنة عذراء فى قلبه .. وستبقى ذكرى رائعة .. لقد وصل الشاب إلى مبتغاه ولكنه سيفشل فى ناحية أخرى .. إن الأرض التى كسبها لن تشرق عليها شمس الحب .. والجنة العذراء ستظل « الجنة المفقودة » .. وسنفهم هذا المغزى بطريقة أوضح عند قراءة : « شمس الخريف » .

شمس الخريف

لم يعرف مختار أباه .. كان هذا الأخير تاجر منسوجات فى دمنهور .. وتزوج فتاة من المنصورة رآها فى إحدى تنقلاته لشأن من شئون التجارة .. ثم استقر فى الإسكندرية حيث حل الرواج بتجارته إلى أن أطبقت الأزمة العالمية فتدهورت تجارته وأفلس وصار يعمل بعد ذلك وسيطا .. وهكذا أثرت حالته المالية على حياته العائلية التى تسممت من جراء إفلاسه ، إذ كانت زوجته ـ أم مختار ـ ذات طبع يميل إلى السيطرة بينما كان هو رجلا وديع الأخلاق وهادىء النفس .. فتلقى الصدمة فى هدوء .. وفى ذات مساء عيرته زوجته بأنه رجل خائب فإذا بالكأس تفيض ويصبح التاجر الهادىء بركانا يغلى .. وفى صبيحة اليوم التالى يخرج إلى عمله ولكنه لا يعود .. وبعد شهر وعلى غير انتظار تلقى الابن رسالة معنونة باسمة وبداخلها حوالة بريدية له .. وتوالت الحوالات البريدية لمدة خمسة شهور .. وفى ذات مساء ، يطرق الباب بعد منتصف الليل ويدخل رجل متهالك ، تعرفه (أم مختار) من صوته وإن إنكرت صورته لشدة تغيرة ، ثم لا تلبث أن تهتدى فيه إلى ملامح زوجها ، فتتلقاه فى أحضانها هيكلا طويلا ناحلا مريضا .. ويجهشان بالبكاء فى وقت واحد .. لقد عاد مريضا فى غير سعة بعد أن كان صحيحا يعيش فى بحبوحة .. ولا يلبث الرجل أن يموت بعد

فترة ويختفى من الحياة بعد أن اختفى من قبل من سوق التجارة ومن سوق السمسرة .. إلا أن ذكراه ستظل حية فى قلب ابنه .. ابنه الذى يحتفظ بصورته التى علقها فى أحسن مكان بالمنزل .

لم يعرف مختار السعادة سواء فى طفولته أو فى مراهقته .. كان غير ميال للدراسة .. وكان فشله المتكرر فى المدرسة سببا لتوتر العلاقة بينه وبين أمه ذات الطبع الحاد والمسيطر .. وتلك الأم مازالت شابة وقلقة على مستقبلها .. ولجدها تندم على سوء حظها فى الحياة أكثر من ندمها على رعونتها .. وتمرض بالصفراء وتحيط نفسها بقارورات الأدوية .. ويحدث أن تتعرف على سيدة ، فيكون هذا التعرف نقطة تحول فى حياتها .. تعرفت على « زينب » التى كانت لونا عجيبا بين أفراد جنسها .. لم تكن جميلة جدا وإن كان يلذ للعينين أن ترعيا ملامحها بلا توقف .. وأجمل ما فيها تدفق حديثها الحلو ، لأنها كانت تتكلم بطريقة تثير النهم .. إنها عاقر ولكنها بالرغم من ذلك عرفت كيف تمسك زوجا شابا جميلا ميسورا بما تبذل من فتنة (٦) .

ورأت فيها « أم مختار » شخصية نادرة واعتبرتها بسرعة صديقة مخلصة حتى إنها تصغى إلى مشورة « الست زينب » بكل اهتمام .. وفى إحدى الخلوات ، تناول الحديث الأمراض ، فعلقت الصديقة على مرض أم مختار بقولها : « مسكينة أيتها الأخت تمرضين بمحض إرادتك وتهزلين بمطلق مشيئتك » !

فقطبت أم مختار مستفسرة عن غرضها ، فتنهدت فى ثقة ودلال

ثم شرعت تصب فى أذنيها قطعا من السحر :

ـ أنت حزينة ولست سقيمة .. أنت زهرة تحت ناقوس من الزجاج.. محرومة من الندى والنسيم .. فهلمى نجرب تحطيم الحواجز ، ونخرج معا إلى حضن الحياة (٧) .

وبفضل زينب حطمت أم مختار زجاجات الأدوية .. وهمست إليها زينب بأن تخلع الملابس السوداء فاستمهلتها أم مختار بابتسامة المقتنعين ، ثم سارعت بأن ربطت ضفيرتها بشريط من الحرير الأحمر بعد أن قذفت بالشريط الأسود من إحدى النوافذ .. وسرعان ما سرت حمرة الشريط من الضفيرة إلى بقية الملابس ..

أما شبح الأزمات فقد اقترحت زينب حلا عمليا ، اقترحت عليها أن تؤجر فى فصل الصيف غرفتين « للضيوف » فى شقتها الكبيرة .

وكان مختار لا يحب زينب لأنه يشعر فى قرارة نفسه بأنها من صنف يمثل اتجاها مخالفا على خط مستقيم مبادىء والده المرحوم .. وكره المنزل ـ كما كره المدرسة من قبل .. فكان يهرب فى نزهات طويلة على دراجته المتهالكة ، وفى إحدى المرات اكتشف « عزبة خورشيد » وتأثرت نفسه بجمال الطبيعة المصرية .

« كان الربيع فى إبانه واليوم جمعة والبحر يغاير بين ألوانه ، كأنما يتأهب لاستقبال السابحات .. وكنت ضائقا بنفسى وأمى وبيتى و« زينب » و« أم نعمات » وبالبحر كذلك والإسكندرية .. أعنى بالمحيط الذى نشأت فيه من أرضه إلى سمائه .. فلجأت إلى دراجتى

التى عراها ما عرا كل مرافقنا من تغير وتبدل وتراجع فجعلت أقطع بها أرض الله يتعاون باطنها مع ظاهرها تعاون المقدمة والمؤخرة فى الجيش المنظم .. قصدت من هذا الذى أقول أن باطن الأرض فى كثير من الأحيان يكون أولى بنا من ظاهرها فلم يكن هناك داع إلى أن أعيش ، ما دام التفاهم قد فقد بينى وبين هذه الكائنات .

كنت أرقب العجلة الأمامية وهى تدور فى سرعة جعلت أسلاكها متصلة كأنها استحالت إلى قرص من الزجاج ، وكنت متجها نحو الجنوب الشرقى مخترقا أرضا بورا تؤنس رقعتها الفسيحة شجيرات ونباتات ذات أشواك تحتمل حياة الجدب حتى تسقيها اليد التى زرعتها ، أعنى يد الطبيعة فى فصل الشتاء .. كنت أرقب هذه الشجيرات المتطفلة التى لم تستنبتها كف فأكاد أجد شبها بينها وبين نفسى ، بعد أن مات الذى استنبتنى منذ زمن فأحببت البرية : وانبسطت أساريرى إلى وجهها الكالح ، فأخذت أدور بالدراجة فى طرقها المتربة الجيرية البيضاء فى دكنة أنشئوها من نفايات الخرائب .. وقسموا بها الأرض إلى مساحات هندسية أعدوها للبناء .. حتى إذا ما أعيانى ارتفاعها وانخفاضها ، وأحسست أن تعبا جثمانيا أوشك أن يسرى فى قواى ، جددت السير نحو الطريق العام بين « كفر الدوار » و « الإسكندرية » .. وكانت أشباح الأشجار إلى يسارى تجرى نحو الشمال بنفس السرعة التى أجرى بها أنا نحو الجنوب .

ثم رأيتنى أعرج على طريق ضيق ينحدر نحو الشرق تتوسده

رءوس المزارع من الشمال وتوازيه من الجنوب ترعة ضيقة تستمد ماءها من ترعة المحمودية الواسعة التى تزحم بعض مناطقها سفن الملاحة النهرية بسواريها الطويلة فتبدو كأنها غابة من السرو بلا أوراق ولا أغصان .

عرجت عن هذا الطريق دون أن أتبين مقصدى وكانت « عزبة خورشيد » تبدو لناظرى على بعد قريب وهى تقف على الطريق العام جنوبى الترعة بدورها المتواضعة التى تتواءم ألوان جدرانها مع لون التربة تمام التواؤم ، لأنها بنيت من الطين ـ نظرت إليها فلم يعننى من أمرها أكثر من أننى تدبرت اسمها ثم سرت فى طريقى لا ألوى على شىء .

كانت الشمس ناقهة من ضعف الشتاء متربعة فى دست الأفق تتماوج بين يديها مواكب الضوء والنور .. أما الحقول فقد أطلقت فيها الطبيعة مجامر بخور انعقد دخانه على هيئة ضباب خفيف جدا شفاف مُسفّ ينسحب على خضرة البرسيم وأعواد الفول وأخاديد الترع وأقدام الشجر ، وتنطلق رائحته متمثلة فى عبق النوار وأنفاس الأزهار التى نمت بطبعها بين أعواد القمح إذا استنبتها الزارعون فى حقول البسلة .. وكان هناك نغم خفيف خافت تنشده الطبيعة للمكدودين من أبنائها والذين تخلى عنها الآباء أو قست عليهم الأمهات .. ويتمثل هذا النشيد فى زقزقة عصفور أو غطيط طنبور أو أنين ساقية أو بكاء طائر أو غناء فلاح .

كان صدرها رحبا بسيطا فى ذلك اليوم فألقيت فيه بنفسى !! ولم أسر على الطريق شوطا بعيدا لأننى رأيت بقعة يحسن الوقوف عندها ، وكانت بين الحقول أشبه بالزهرة الوحيدة وسط مفرش من المخمل الأخضر .

أخذ الطريق يرتفع بالتدريج ويبدو مستويا جميلا لأن يدا ترعاه فى أوقات معلومة .. أما الترعة إلى اليمين فلم يكن سيفها مقفرا عاريا وإنما دعم بأنواع من النبات تساعد التربة على التماسك فلا تنهار فى الماء ، فاتسقت عليها زمر تلاحقت فتلاصقت من نوع من الحلفاء خشن جاف يطول حتى تتحلى أطراف عيدانه بما يشبه أذناب الهررة أو الثعالب .. زغب من الحرير اللامع الناعم أبيض نظيف لبدته يد الطبيعة فى نهاية الأعواد بترف يتنافى تماما مع خشونة الحلفاء !!

وعندما تبدأ الحلفاء فى الانقطاع ويظهر سيف الترعة أجرد عاريا من كل شىء تقوم شجرة الصفصاف منكبة على الماء تاركة شعرها لتياره يعابثه فى رفق ناعم ، على حين تنشر هى ظلها على عدة أحجار رصت لتكون درجا ساذجا يؤدى بالنازل إلى الماء على اختلاف المناسيب فيستطيع أن يجلس القرفصاء ليتوضأ ثم يصعد ثانيا إلى رقعة مستوية صغيرة حنت عليها الشجرة وأحيطت بالطين وفرشت بجفيف الحشيش ، وهناك حيث البساطة والدعة والعزلة عن البذخ والمظاهر تتصل نفوس المصلين بمقصد كل وجود .

أما البقعة التى كانت أشبه بالزهرة الوحيدة وسط مفرش من

المخمل الأخضر فقد كانت إلى يسار السائر ، كانت أغراسها القائمة على رأسها الذى يتوسد الطريق توحى بأشياء عدة :

توحى بأن زارعها يتعهدها منذ سنوات بجهد نافع متصل الحلقات لأنه نثر عند مدخل الحقل عدة شجرات من السنط والتوت وشجرة من الجميز ، وتدل أعمارها على أن يدا صناعا عملت فى هذه البقعة من عشر سنوات .

وتوحى بأن الزارع مقيم فيها لا يبرحها ، فهناك كلب ينبح وديك بلدى كبير مقيم على سطح الكوخ ناصبا ساقيه الطويلتين متلفتا فى نواحى الأفق كأنه يتفقد نجوم الفجر التى رآها قبيل النور .. وتبدو قمة هذا الكوخ البنى من اللبن خلال شريط من أشجار الموز تزاحمها فى بعض النواحى نخلات نهضت قريبا على ساقها فأخذت سعفاتها تقبل التربة .. ولعل الزارع قد قصد من هذا الغراس أن يجعل منها سورا منتجا يحمى ما بداخل المزرعة .

وقفت عند المصلى أرقب الحقل من حده الشرقى وأتأمل جزءا منه نهضت فيه شجيرات البسلة متشبثة بأعواد من الغاب أو حطب القطن باسمة عن أزهار ذات أجنحة كأنها فراشات ، وأتأمل جزءا آخر منه قد نهضت فيه لفائف الكرنب واقفة على رءوسها الطويلة .. وأتأمل أطراف الحقل وقد نثرت عن حواشيها شجرات لا تزال تلمع على إحداها ثمار البرتقال حمراء زاهية مستديرة لامعة كأنها بين خضرة الأغصان شعلة بلا دخان .

كانت شجرة الصفصاف من ورائى تنوس شعورها مع نسيم الربيع والمصلى على قيد خطوة منى والحقل مستأثر بعينى ، فأحسست فجأة أنى نسيت الهموم أو أن الهموم قد ضلت عنى فلم تنجح فى مطاردتى . وأحسست فوق ذلك دعة وطمأنينة مفعمتين باللذة من نوع من تلك التى نحسها بعد زوال المخاوف .. ثم تأملت موقفى فوجدتنى على الرغم من شبابى طفلا يصغى إلى الهدهدة فذكرت عبارة رأيتها ذات مرة كتبت تحت لوحة لرسام « الطبيعة أمنا الرءوم (٨) » .

وباختصار فقد أثرت عزبة خورشيد على قلب مختار .. وهذا الحب المفاجىء جاء مقدمة لحب آخر أقوى منه وأعمق .. لقد جاءت ابنه الفلاح تملأ جرتها من القناة . وهذا أمر كاف جعل مختار يعود إلى نفس المكان .. ونجح الشاب فى التحدث مع سكينة (وهذا اسمها الحقيقى وإن ناداها الجميع غيره باسم سُكرَة) .. ويلتقى بأبيها العم خليل وهو فلاح له زوجة وثلاثة أولاد يحبهم جميعا .. ويحب أيضا الله ، لأن العم خليل من المتصوفة .. وأسماء ابنيه الآخرين هما : العدوية وقد سماها على اسم رابعة .. والولد اسمه البسطامى وقد أطلقه عليه تيمنا باسم سيدى أبى اليزيد .. وهذا الرجل البسيط المستقيم يميل إلى مختار .. وهذا الأخير يأتى كثيرا لزيارته متعللا بمساعدة ابنه الصغير البسطامى فى دروسه .. ولكن يبدو أن صاحب المنزل يجهل تماما تعلق مختار بالحب الصامت الذى يكنه لكبرى بنتيه .

وبينما يجد مختار راحة قلبه فى عزبة خورشيد ، نرى الأمور

تتطور بطريقة غير سارة فى منزله .. فإن أمه تتزوج عباس افندى رب أسرة المصيفين الذين سكنت عندهم فى الصيف .. وعباس افندى مدرس يسعى إلى نقل نفسه إلى الإسكندرية لكى يعيش مع أم مختار ، ولا يمنعه هذا النقل من الذهاب إلى دمنهور فى كل يوم أربعاء ليقضى هناك يومين مع زوجته الأولى فى كل أسبوع .. وسرعان ما تتعقد العلاقة بين مختار وبين زوج أمه ، خاصة بعد فشل مختار فى المدرسة فتكون القطيعة بينهما .

ويذهب مختار إلى أحد أصدقائه « أنور أمين » ، الذى تخصص فى مسائل التزويغ والهرب وقد زاولهما فى فرص مختلفة وأوقات متباينة ، فيسوق إليه هذا الخبير نصائحه الطريفة :

ـ « لاحظ أنك ستهرب فى الشتاء يا صاحبى .. وهذا أمر جد عظيم ، لأن الجو فيه عامل غير مساعد .. نحن فى الصيف نستطيع أن ننام فى العراء بلا غطاء .. لكن فى هذا الفصل فانظر أى خطر سنتعرض له .

ليس هذا من شأنى على كل حال .. أما الذى من شأنى فهو أن أبصرك بأمور هامة بالنسبة للذين يزاولون هذا العمل للمرة الأولى : احذر أن تبدو مضطربا إن كنت فى مدينة وإلا خلقت لنفسك المتاعب « البوليس » !!! كما يجب أن تجعل الطعام فى المرتبة الثانية بعد المظهر وإلا وقعت فى المتاعب كذلك ، أعنى : لا تجعل شعرك يطول ولا قميصك يتقذر فإن الشريد النظيف سيد الشرداء .

وأما ما يتعلق بالمبيت وهو أهم المشاكل فلك أن تختار مثوى رخيص الأجر فى أيامك الأولى وأمامك بعد ذلك العمارات الجديدة التى تقام أبنيتها وينام فيها العاملون فانزو فى أحد أركانها .. ثم المساجد والزوايا على شرط أن تتوفر فى خدمها المزايا الضرورية لك كضعف البصر أو الشيخوخة .. ثم المقابر أخيرا إن كنت ثابت الجنان (٩) .

ولعباس افندى خادمة اسمها وهيبة قد لازمته عند زوجته الجديدة .. وتقع وهيبة فى حب مختار .. وبمساعدة وهيبة وتكتمها عليه يهرب مختار من المنزل ويذهب إلى سكينة حيث يكرر لها عهود الحب ثم يرحل إلى القاهرة وقد أخذ معه صورة والده .

عند ئذ تبدأ مرحلة قاسية فى حياته عرف فيها الجوع والتشريد .. ويسكن فى فندق حقير بالسيدة زينب ويعيش عيش الكفاف أو دونه .. ويظل يبحث عن عمل فلا يجد لأن خجله الطبيعى يعوقه .. وسرعان ما تتبدد النقود بعد أن عاش على الفتات .. فيفكر جديا فى مأوى مجانى ويتذكر نصائح صديقة الإسكندرى :

« على أننى عدت فاستعرضت ما قاله أنور أمين فقلت فى نفسى : فلأجرب .. وجعلت أنقب فى المنطقة كلها عن مسجد تتوافر فى خادمه الشروط المطلوبة حتى آوى إليه ليلة من الليالى ، فرأيت فى الأول خادما عملاقا طويلا ناحلا ليس فيه شىء أقوى من عينيه .. ووجدت فى الثانى شيخا كهلا مسنا لكنه يعتمد فى الخدمة على ولد له

فهو يـــرى ببصره وذلك غير المطلوب .. ثم قـادنى شارع « درب الجماميز » المتلوى المعوج النكد الضيق ، الذى يذكرنى بدروب الحياة كلما عبرته ـ قادنى إلى مسجد صغير رأيت فى خادمه الرجل المطلوب: خيل إلى ساعة بصرت به أن عينيه لم تولدا معه بل قد ورثهما جارحتين مكدودتين عن أبيه الشيخ الذى مات ، غابت أحداقهما فى دمعه لا تجف وماتت أجفانهما فى مياة الفيضان ، وأحدقت بهما الحمرة فهو يتلمس طريقه بكلتا يديه .

رأيته عصر يوم ، وعدت إليه فى مسائه وقضيت صلاة العشاء وكنت من المصليين ، وآثرت أن أكون بجوار المنبر .. وخرج الناس وجعلت أتلكأ .. وكان آخر ما سمعته فى ذلك المسجد المتوسط المساحة صوت رجل من العامة استوقف الإمام وهو في طريقه إلى الانصراف ليستفتيه فى يمين طلاق حلفها على امرأته فجعل الشيخ يرسل فتواه محرجة كريهة حتى أطبقت على عنق السائل كما يطبق حبل المشنقة .. وقد جعلتنى أحس أن قوانين السماء لم تنزل لإسعاد الناس وأن قوة ناقمة خفية تعمد إلى أن تنفس ما بها فينا .. ثم أخذ الصوتان يبتعدان حتى غابا عنى تماما بعد أن عبر صاحباهما الباب ، فلم أسمع إلا دق الخادم على خشب النوافذ ليتأكد من أن المصاريع مقفلة وكان على بعد منى فلجأت إلى جوف المنبر ، وكان ذا بابين على الجنبين ، فرأيت فى داخله على شعاع الأنوار فى السقف سقط متاع للخدمة ، فيه مكانس قديمة وخرق وقباقيب وكيزان .. وتنحنح الرجل كأنما يريد أن يوهم من

هناك بأنه يراه وأنه بانتظار أن ينصرف حتى يطفىء النور . ولكننى جثمت فى مكمنى أغالب أنفاسى .. وأخذت الأضواء تختفى واحدا فى إثر واحد فلم يبق إلا مصباح أخير قريب من الباب كان آخر ما أطفىء .. وساد الظلام وصر المصراع الكبير ليقفل وأدير فى غلقه مفتاح غليظ كان آخر ما سمعته فى هذه الليلة ثم أطبق سكونه كأنه سكون المقابر .

خرجت من جوف المنبر أستمع إلى دقات قلبى وأتحسس شعر رأسى الذى قَف جميعه .. وتذكرت « أنور أمين » فدعوت عليه بكارثة .. ثم ندمت على أنى لم ألجأ إلى .. إلى ماذا ؟ مقبرة ؟ لا بل إلى عمارة جديدة .. ولم يطل بى الفكر فخلعت سترتى ووضعتها إلى جوارى وأخرجت البطانية الحائلة من الجريدة القديمة التى كانت تحت إبطى وأنا داخل إلى المسجد وتمددت وألقيت الغطاء على جسدى .. ولكن هل تظن أننى سأنام ؟ محال ..

لم أكن أعلم حتى هذه الليلة أن للسكون صوتا يسمع .. كان هناك أزيز خفيف مبهم ينصب على مسمعى كأن الليل يحدث نفسه ، ثم شاءت الطبيعة أن تقسو علىّ ، فأرسلت من تحتى شواظا باردا نفثه البلاط من الحصير الذى نمت عليه للمرة الأولى . ثم سمعت خفق الريح فى أحد المناور ، ولم ألبث قليلا حتى اهتززت بزمجرة الرعد ، وخيل إلى أن مخلوقا ضخما هائلا لست أعلمه يجد فى مطاردتى وأننى لا شك مهزوم فقمت أتلمس الطريق لأهتدى إلى أزرار النور ، وما كدت أخطو خطوتين حتى تقلص جلدى بقشعريرة عظيمة وتوهمت أننى بعد

قليل سأمسك بأنف شيطان وأنا أتحسس الطريق فى الظلام الدامس فاصطدمت بإحدى السوارى وأنا أتراجع فزاد ارتباكى ورأيت من الأفضل أن أعود إلى مكانى قبل أن تفصلنى عنه مسافة طويلة ، ولكنى قطعت كيلومترات حتى اهتديت إليه .. قلت فى نفسى وأنا ألف جسدى من جديد بغطائى الحائل وأستمع إلى زمجرة الرعد : أهكذا تطول المسافات علينا فى الظلام ثم تتبدل الأماكن !؟ ثم ذكرت مراقدى المختلفة التى نبذتنى إلى هذا المرقد ، ذكرت مرقدى فى ظلال أبى وأمى ، ثم مرقدى بعد أن زهدت فى صحبتى وفصلت مصيرها عن مصيرى ، ثم مرقدى يوم حرم علىّ أن أدخل مخدعها الذى أضاءته بزوج ، ثم مرقدى على السرير المأجور الذى أرهقنى أجره فأسلمنى إلى هذه الضجعة .. وأخذت نفسا عميقا ولم أكن أعلم أن الدنيا تمطر فى الخارج إلا حين أخذت قطرات من المطر تتساقط على الحصير من بعض النواحى فى السقف فترن فى سكون الليل رنينا أزعجنى أول ما وقع ، فدعوت على « أنور أمين » بكارثة !! (١٠) .

غير أن مختار يأنف من تلك المساكن المجانية فيعود إلى غرفة الفندق بعد أن انتهت نقوده تماما وأنهكت أعصابه .. ويطلب منه صاحب الفندق أن يعمل عنده فى وظيفة صراف نظير غرفة صغيرة تحت السلم ، فيكون خلاصة من العذاب .

وبعد زمن وبواسطة أحد أصدقائه وخاصة بسبب خطأ لأن شخصا آخر يحمل نفس اسمه ، سوف يعين فى وظيفه موزع بريد ويؤجر عندئذ

شقه فى باب الخلق .. وتقوده مهنته إلى التعرف على سيده اسمها (السيدة ف ..) .. وهذه السيدة الشابة مدرسة فى إصلاحية للبنات .. وهى تعيش بمفردها .. تهتم السيدة ف .. به وتقرضه كتبا وتتحادث معه وتساعده على التقدم والحصول على شهادة الكفاءة ، فيتوظف بأحد مكاتب البريد .. إنه يقع فى غرامها وينتهى الأمر بأن يعلن حبه لها .. وتبدأ السيدة بواسطة خطابات فى الاعتراف له بتفاصيل حياتها .. لقد كانت متزوجة وكان يعرف ذلك ولكنه كان يجهل تفاصيل افتراقها عن زوجها .. وكان هذا الأخير مالكا لمطعم وهو رجل مستقيم وكريم يلبى كل طلباتها .. غير أنهما كانا بغير أطفال .. واستغل شاب مخادع لحظة ضعف فيها وبدأ يتودد إليها فجرت الحوادث إلى غير ما تشتهى .. ولم تشأ أن تعيش فى ذات الوقت زوجة وعشيقة .. وبعد أن نال الشاب الوسيم وطره هرب .. وانفصلت عن زوجها وأرادت التكفير عما اقترفت فعادت إلى مهنتها التعليمية بعد أن طلقها الزوج .

وكان رد فعل مختار قاسيا .. إذا أخطأت المرأة فلا يهم عدد المرات التى هوت فيها ، لأن المسألة فى نظره مسألة مبدأ .. ويسافر إلى الإسكندرية ويزور شارعه القديم .. ومن بعيد يشاهد أمه ومعها طفلها الجديد ويشعر بأنه دخيل عليهما ، فيعرج إلى عزبة خورشيد ويعلم أن العم خليل قد مات وأن سكينة قد تزوجت وأن العائلة قد تفرقت .. ويصرخ قليلا : سبحان من يغيرّ ولا يتغيرّ (١١)

ثم يبحث جاهدا عن شمس الخريف فى طريق يقوده إلى جنته

المفقودة .. ويعود إلى الإسكندرية بعد أن تعذب ضميره ، لأنه كان قاسيا مع السيدة ف .. وبعد فترة من الصراع الداخلى وبعد لقاء عابر وليد الصدفة ، يصفح عنها ويقترن بها .

إنهما يعيشان فى سعادة زوجية متصلة .. مختار طموح ويتقدم فى امتحان البكالوريا وينجح فيه .. وبعد ثلاث سنوات ، يستولدها ابنا اسمه (وحيد) .. والسيدة ف .. بعد سنوات متوقدة تهبط صحتها بسبب إجهاض وبسبب تفانيها فى العمل لعائلتها .. وتصاب بمرض السل فتموت فى المستشفى :

« تركت البرافان محيطا بسريرها ووقفت فى الشرفة الغربية ألقى نظرة على شمس الخريف المائلة إلى المغيب ، وأسترجع بخيالى صورة المريضة التى كأنها هى الأخرى شمس فى منحدرها إلى المغرب وتقاسمتنى الذكريات وتوزعتنى الأحداث (١٢) .

ويصبح وحيد طبيبا ويتخصص فى الأمراض الصدرية .. إنه مخطوب لفتاة وأبوه سعيد من أجله .. وفى يوم عيد ميلاده يقوم الولد بإهداء صورته للأب .. ويقوم الأب ويعلق صورة الابن إلى جانب صورة والده ويسرح بفكره .. سيأتى يوم ويجىء حفيد يضع صورته إلى جانب صورة وحيد .. وسيأتى زمن تخرج فيه أجيال لن تذكر الأجداد .. فسبحان من يغيّر ولا يتغيّر !

* * *

وهكذا تنتهى أحداث الرواية وقد شملت فترة زمنية ذات ثلاث

مراحل .. الأزمة العالمية الطاحنة التى تركت آثارها على مصر حول سنة ١٩٣٠ فبددت ثروة والد مختار عندما كان هذا الأخير فى الخامسة أو السادسة من عمره ، ونستنتج من ذلك أنه ولد حوالى عام ١٩٢٥.. ثم مرض التيفوس (صفحة ٧٥ وما بعدها) قد انتشر فى مصر سنة ١٩٤٤ (هذا بينما مرض الكوليرا الذى لم يجىء ذكره صراحة قد انتشر وباءً فى عام ١٩٤٧) .. وأخيرا مختار سنلتقى به بعد سنوات من زواجه .. إنه ينتظر الرجل الذى سيخرج الإنجليز من البلاد وسنلتقى به فى سنة ١٩٤٥ .

ونود أن نسلط بعض الضوء على تلك الرواية التى تعتبر حتى الآن (١٩٦٥) أحسن رواياته .. فقد كتبها مؤلفها فى ١٩٥٢ ونالت أرفع تقدير فى ١٩٥٣ أذ نالت جائزة الدولة فى الأدب .. إن الحب هو مفتاح العنوان .. وشمس الحياة هى الحب ، ولكنها شمس الخريف ، لأن الشمس قد عتمتها لوعة الموت .. (الصفحات ٢٣٢ ــ ٢٣٧ ــ ٢٨٣ ــ ٢٨٤) .. إنه الموضوع الخالد الذى يحلو للمؤلف أن يستعيد نغماته وقد مزجه باهتماماته الأخرى مثل : الجوع والسعادة والمسئولية والغفران .. الأبوة .. وقد يكون من المفيد أن نخصص جزءا ثالثا وأخيرا للحديث عن تلك الموضوعات بإفاضة .

سمات البطل :

إن لفظة « بطل » تستدعى فى الحال أيضاحين أولهما أن البطل لا يعنى بالضرورة فى نظر مؤلفه شخصا يمثل نمطا رفيعا من المثل الأعلى، تلهم حياته الناس لكى يتشبثوا به عن طريق التقليد .. إنه فقط الشخصية المحورية .. والإيضاح الثانى ، أن هذه الشخصية المحورية ليست وحيدة .. إن زوايات عبد الحليم عبد الله لا تتصل بعضها ببعض ، فكل واحدة منها مستقلة عن الأخرى وأشخاصها مختلفون لا يعرف بعضهم البعض .. ولكن بالرغم من ذلك ، فإن البطل لا يتغير فيها .. إنه يتكرر ، ولكن دون أن تتغير سماته .

وباستثناء رواية (لقيطة) ، حيث تدور وقائع القصة حول لقيطة ، فإن البطل الأساسى فى كل رواياته ذكر .. إنه شاب ، ثم يظل شابا فيما عد (شمس الخريف) ، حيث يبلغ سن الرجال الناضجين ، ولكن بدون أن تتغير سماته .. وهذه السمات الشخصية واضحة بدقة وتحديد: إنه شخص عاطفى .. إن الناقد (لاسن) حمّل هذا اللفظ الأدبى معنى علميا .. فالعاطفى عنده يدل على نفسية فرد سهل الإثارة ، غير فعال وثانوى .. وهذه هى صفات بطل عبد الحليم عبد الله .. فهو شاب عادى فى مقتبل العمر ، ومعدنه وسط بل يكاد يكون هابطا ولكنه طيب القلب ، غير أن تلك الصفة الحميدة لا تترجم بأفعال إيجابية ، إلى أثر محسوس إذا تطلب منه إنجازها جهدا كبيرا .. وعليه فهو غالبا ما يفضل أن يعيش مع نفسه .. وهذه هى السمة المميزة « للثانوى » ، إذ

تعلن تلك اللفظة عن عدم التكافؤ بين حقيقة عواطفه وبين ضعف الإرادة لتحقيق أمنياته .. وفى وضوح دقيق ، يشهد على ذلك ، النصان التاليان :

«وأنفقت فى المحاولة التى قصصتها عليك كل ما ادخرته من عزم وتصميم ، ولذلك لم أجترىء بعد إخفاقى علي أن أعاود التجربة مرة أخرى » (١٣) .

« إننى أعرف نفسى وقد وصفتها لك من قبل : إننى هادىء الظاهر ، مضطرم الباطن كأننى مستنقع تغطى خضرة البشنين كدرة مائه » (١٤) .

ومن هنا نفهم حبه للعزلة ، مع ما قد يترتب عليها من أوهام :

« وإذ عدت لأشرف على الكون من نافذتى الغربية بدت القاهرة لى تحت مستوى بصرى منخفضة تلمع أضواء نوافذها المفتوحة وراء غلالة رقيقة من ضباب النيل .. وهنا تسرى فى أوصالى تلك النشوة التى تخلقها الوحدة فى الغالب ، فأتخيل أننى أطل من أبراج قصرى على أملاكى الواسعة ، أو أتخيل أننى فى بقعة أويت إليها بفقرى ولجأت إليها بيؤسى حتى لا يعرف مكاننا إنسان » (١٥) .

وهذا الشخص المنطوى بطبيعته ، غالبا ما يهرب بمحض إرادته إلى عالم الأحلام : « إن الأمانى فى قلبى أحلى مذاقا من وقوعها كما قلت لك .. وتوقع الكوارث أشد مرارة فى نفسى من نزولها كما حدثتك » (١٦) .

وبهذا « التعلق فى فراغ » بين الأمل والواقع ـ بعد أن يكون قد صدم بالواقع ، وخاب ظنه فى الأمل ـ يصبح بطل ع . عبد الله كمن أسقط فى يده ، كما يبدو ذلك على سبيل المثال فى شجرة اللبلاب (صفحة ١٦٤) . فهل يعتبر هذا الانكسار المعادل المصرى لحالة القلق؟ وعلى أيه حال ، فإن البطل يتجلى فى صورة الشخص الذى حطمته الحياة .. فالتردد يربطه ويشل حركته .. إنه شخص بغير إرادة أو محدود القدرات « إنسان لا مواهب فيه ، تختطفه ريح من ريح وتهديه زوبعة إلى زوبعة » (١٧) .

وفى مكان آخر نعثر على تعبير « ضعيف النفس » .. وهذه الصورة الشخصية التى يرسمها البطل نفسه لا تعلى من قدره ولكنها تنم على الأقل عن تمكن الوعى وجلاء البصيرة .. إن بطلنا يمضى فى تحليل نفسه طويلا ، بمساعدة المؤلف الذى كتب خمسا من رواياته بصيغة المفرد المتكلم .. إن محمد عبد الحليم روائى « داخلى » أو «باطنى » فهو يهتم كثيرا بنفسية شخصياته .. وبناء عليه ، نجد أن لولب رواياته نفسىّ ، يكاد يكون مستقلا عن الحوادث الخارجية .. ويتجه تفكيرنا بالأخص إلى عملين له ، هما « شجرة اللبلاب » و«غصن الزيتون » .. شجرة اللبلاب هى قصة حب فاشل إنها تحكى ما حدث لشاب حديث السن يكره النساء لأسباب تعود إلى زمن طفولته .. غير أنه يقع فى غرام مراهقة .. إن الفتاة الصغيرة تحب ، ولكنه لا يستطيع أن يثق فى الحب .. أما « غصن الزيتون » فهى

دراسة عن الغيرة التى تتسلل إلى بيت الزوجية ، فتسعى فيه ببطء حتى تهدمه .. إن إثبات وقائعه مقنعة ، خاصة وأن معالجته للقضية تتم بصيغة المتكلم ويترتب على ذلك أن القارىء يظل حبيسا فى دائرة ضيقة مليئة بآراء تدل على ضعف بطلها .. فهو متردد ، لا شخصية له ونزق .. وهذا سبب تعاسته .. غير أنه يظل جذابا لنا بفضل إخلاصه وتعاسته إيضا .. أليس هذا بعدا إنسانيا تشترك فيه البشرية (١٨) بأسرها .

معنى الحياة :

أن نعيش معناه أن نجوع .. إننا نبدأ حياتنا جائعين .. وهكذا نظل شرهين حتى الرمق الأخير .. « حقيقة أن نفوسنا لا تعرف الشبع .. نجوع بالمعدة ، ثم نعرف الجوع بالقلب » (١٩) .

فكأن حياتنا تساوى قدر ما يعنيه جوعنا .. ومن هنا ندرك أهميه الحب .. سوف نذكر فقرة من لقيطة تبين كيف يكشف الحب عن وجه العالم :

« فما أعجب قلب الإنسان .. وما أغمض سر الله فيه ! يربط بينه وبين الدنيا شخص واحد ، ويفصل بينه وبين الدنيا شخص واحد .. فإن وجده وجدها ، وإن فقده فقدها ، فهو لا يراها إلا بوسيلته .. لم يخلق مضيئا بطبعه ، وإنما يستمد النور من غيره .. حساس إذا سكن ، مصمت إذا خلا ، لا يزيد على قبضة من لحم .. يصبح المرء ويمسى فيرى الدنيا على غير ما كلن يراها وهى هى لا شك لم تتغير ، غير أن

إنسانا واحدا بدلها فى ناظريه .. وكأين من أناس غابوا قبل ذلك اليوم فلم يبدلوا فيها شيئا لأن قلبه ما كان يراها بهم ولا كانوا هم وسيلته إليها (٢٠) »

لن تدهشنا إذن تلك الأهمية التى يعلقها المؤلف على الحب .. ولا يعود سبب دهشتنا إلى الإفراط وتجاوز الحدود فى هذه الأهمية ، وإنما إلى عدم التناسب بين أهميه الحب والاهتمامات الأخرى التى تبديها الشخصيات نحو المشاكل الإنسانية الكبرى .. « إن الحب أقوى من الموت » (٢١) الحب هو السلام .. الحب هو غصن الزيتون « غصن الزيتون » (٢٢) .. غير أن هذا السلام يشترى ويكتسب بعد معارك ضارية .. « لكن معارك الحب أغرب من معارك الحرب .. قد لا تدل مقدماتها عن نهاياتها » (٢٣) .

إن عبد الحليم عبد الله يرسم لنا أنواعا متباينة من الحب .. من ذلك مثلا الحب الشهوانى الحسى عند شكرى .. « سكون العاصفة » ، والحب الحقيقى الذى تكنه « أميرة » لعبد العزيز عندما تقع أخيرا فى أحضانه وهى تردد : « إنى أكرهك .. آه كم أكرهك ! » (٣٤) .. ثم نموذج آخر من الحب هو الرابطة التى تجمع بين الأب والابن .. وسنعود إلى بيان ذلك فيما بعد .. وإلى تلك القائمة سوف نضيف أيضا حب الله .. إنه يتوج القائمة ويساعد على إلقاء المزيد من الضوء (٢٥) .. سنعثر فى « شمس الخريف » على العم خليل الفلاح المتصوف بعزبة خوشيد .. إنه بصفته من أتباع الشيخ البسطامى ينادى

بحب الله .. بينما « مختار » سيبدو مقتنعا بهذا النداء ولا يجد أى تعارض .. بل يلمس أن هناك رابطة طبيعية بين حب الله وحب الآخرين.

وعلى أية حال ، فإن مسرح الحب لا يجحد مقامه دائمافى أحسن الأوساط ولا عند أنبل الأشخاص .. إن عواطفنا وآمالنا تقاوم دائما بعقبات ، سواء الداخلية أم الخارجية .. وأول تلك العقبات هى أخطاؤنا .. والأخطاء بدورها تفتح الباب توآ لمسألة الغفران .. إن قصة الغفران بجانبها الفيزيقى وجانبها الخلقى قد ألهمت عبد الحليم عبد الله الكثير من قصصه القصيرة .. وسنعود إلى تناول تللك المسألة فى رواياته (٢٦) .. وتفتح مسألة الغفران الباب واسعا على مشكلة أكبر منها ، هى مشكلة المسئولية .. إن شخصيات ع . عبد الله التى نرقب عادة نموها ، قد طبعت منذ حداثة سنها على إدراك فجائى للمسئولية التى تقع عليها وما يترتب على ذلك من نتائج أخلاقيه واجتماعية (٢٧) .. ولكن العقبة الكبرى فى خيط الحياة هى الموت بلا ريب .

« إن طرق الفناء لا تقل غرابة ولا بدعا عن طريق الخلق (٢٨)

وإزاء الموت يؤكد عبد الحليم عبد الله إيمانه بخلود الروح .. إن إيمانه القوى يوحى إليه فى ذات الوقت احترام وعبادة « الحى » الذى لا يموت « سبحان من يغير ولا يتغير » تلك الحكمة التى تكررت فى « شمس الخريف » ؛ وكأنها اللحن الأساسى السائد . ولكن قولنا هذا لا يشفى الغليل .. إن الأحياء يشعرون فى حدة بأن سر الموت يخبىء شيئا ما

يزيد من قيمة حياتنا .. غير أن الحياة التى تفلت منا والسعادة نبت بلا خلقة (٢٩) والتجربة التى اكتسبها إنسان لا تنفع سواه .. ولكن الحياة فى انتقالها إلى الغير تكتسب قيمة أكبر .. وهنا شرف الأبوة .. فالأب يشغل مركزا محترما فى روايات عبد الحليم عبد الله .. وتدور رواية « سكون العاصفة » حول مأساة الأبوة من حول بطلها المسمى «عزت » .. وفى الروايات الأخرى ، يكون الأب عادة شخصا ثانويا ، ولكنه بالرغم من ذلك لا تتصف أعماله ومواقفه بعدم الاكتراث .. وقد تكون تصرفاته خاطئة ، ولكنه يندم عليها فيما بعد (٣٠) .. وهذا ما يعبر عنه المؤلف فى الصفحة الأخيرة من « بعد الغروب » .

« وتسألنى اليوم بعد أن غربت شمسى ولم يبق لى من الحياة إلا آثار نور يرسلها الشفق وحده على أفقى .. تسألنى : هل نلت كل ما تتمناه ؟ أقول لك : إلا شيئا واحدا أعده اليوم أعظم أمانىّ جميعا .

الولد ! الولد !!

وهل تتصور أن أحسد « حامدا » وأتمنى أن لو كان لى مثل حظه، حين أسمع تصايح أولاده بين الحقول وفى باحة الدار ؟!

معذرة يا صديقى ..

كأننا لا نفهم حقائق الأمانى إلا فى أخريات العمر !! بعد ألا يبقى من آثار الحياة إلا النور الذى يرسله الشفق وحده !! أعنى بعد الغروب » .

وتتم الرواية على تلك الكلمات المؤثرة ، والتى لا تكشف عن قلب

كسير فحسب ، وإنما عن قلب جائع أيضا .. إن أبطال عبد الحليم عبد الله ، إذا ما انتهت حياتهم فى فراغ داخلى ، فإن هذا الفراغ هو دائما فى الوقت ذاته ذكرى ونداء ، إنه نداء لما يملأ ويستمر .. إنه نداء للخلود .

المرأة :

يقدم عبد الحليم عبد الله المرأة فى صورة إيجابية .. ويصوب هنا وهناك نقدا حادا للطبيعة الأنثوية (٣٢) غير أن المؤلف ينادى فى غير لبس بحرية المرأة ، طالما كانت تلك الحرية فى حدود معقولة ، أى فى جرأة وتقدم (٣٣) .. وأمكننا ملاحظة أنه يعطى لبعض شخصياته النسائية قدرا من حرية التفكير والسلوك نجدها الآن شائعة بيننا ، ولكنها لم تكن موجودة فى الزمن الذى تجرى فيه حوادث قصصه .

وبوجه عام ، فإن فى شخصياته النسائية ما يشرّف المرأة المصرية.. ولكن توجد ولا ريب بعض الظلال .. سنعثر على بعض العشيقات (٣٤) .. سنعثر أيضا على حالات كثيرة لرجال تزوجوا بأكثر من زوجة (٣٥) .. ولكن إلى جانب أولئك ، سنجد فتيات مجتهدات يفرضن الاحترام بفضل طهارتهن وعملهن .. مثال ذلك المسكينة « ليلى » ، وهى اليتيمة فى رواية « لقيطة » ، أو أميرة الحازمة التى تدير منزل والدها الأرمل فى « بعد الغروب » أو سميرة الدمثة والشجاعة فى « من أجل ولدى » .. هناك أيضا أرامل جاهدن فى قوة من أجل تربية

أولادهن .. إن أيديهن قاسية بعض الشيء لأن القارب الذى يمسكن دفته مليء بالماء .. وجميعهن جديرات بالإعجاب رغم كل شيء ، مثل أم مختار ، بالرغم من عيوبها فى « شمس الخريف » ، وأيضا والدة فؤاد فى « من أجل ولدى » .

وهؤلاء الأرامل أمهات .. ويبرز ع . عبد الله بطريقة مؤثرة المحبة التى تربط الأم بأولادها ، خاصة العلاقة التى تربط بين أم وابنها (٣٦) ، سنعثر على عبارة مؤثرة فى صرخة الفرح التى يطلقها حسنى الصغير وقد فقد أمه عندما كان صغيرا .. صرخ فى نشوة يوم علم أن والده سوف يتزوج ثانية ، لقد تخيل أن تلك الزوجة ستكون أما حقيقية له أو تجسيدا لأمه .. وكم كانت خيبة أمله ! لن تكون له إلا زوجة أب « إننى كنت كالشق الأعلى من الرحا إذ يدور على غير محور دورانا متخبطا فإنه ليس لى أم » (٣٧) .

وجدير بأن تتوقف قليلا عند إحدى الشخصيات الحية التى أبدعها عبد الحليم .. وهى إلى جانب صدقها الواقعى من أدمثها طباعا ، ونقصد بها الست « جليلة » .. إنها تشترك فى أوجه شبه كثيرة مع « السيدة ف »» التى نلتقى بها فى « شمس الخريف » ، غير أن الست جليلة هذه لا تظهر قبل النصف الأول من رواية « من أجل ولدى» .. وبالرغم من هذا الغياب ، فهى تسيطر على أحداث الرواية كلها .. إنها الابنه الكبرى فى عائلة كثيرة العدد وفقيرة فيزوجها أبوها ، تخلصا منها ، إلى رجل سبق له الزواج .. وهكذا تصبح زوجته

الشرعية الثانية ويستولدها هذا الرجل ولدين .. وبعد أن يموت فى ظروف مضطربة تعود إلى بيت أهلها ومعها طفلاها ، ومعها أيضا الجمال والفقر المدقع .. وهذان الأخيران ، كما نعلم ، هما أسوأ صحبة يمكن لسيدة شابة أن يظلا معها .. إلا أنها تهرب من ارتباطهما البشع بها إلى حد ما .. ومع مرور الزمن تصبح خادمة ، فممرضة .. ثم تتفرغ لخدمة طبيب عجوز وأعزب .. ونعرف من سياق الرواية أنها كانت تقدم له هدايا كثيرة ، وربما أعطت له هدايا من نوع آخر ! (صفحة ٢٣١) .. وعندما يموت ترث عنه بموجب وصية مبلغ مائتى جنيه مصرى .. وعندئذ تقرر شراء منزل صغير فى الجيزة ، وتستخدم بقية مالها فى إقراضه للناس .. ويأتى يوم يزورها فيه فؤاد لقضاء بعض الأعمال التجارية ، فإذا بعقرب يلدغ ابنها .. ويصحب فؤاد الابن فى سيارة أجره حتى المستشفى ومعهما الأم .. وقربت تلك الحادثة بين الاثنين .. ثم تأتى سلسلة من الظروف تحركها السيدة جليلة بذكاء إلى اليوم التى تترك فيه الأعمال المالية .. إنها تحبه فى إخلاص وتتمنى أن يُربط مصيرها به غير أنه يصغرها بعشر سنوات .. ثم بدأ الجيران يتكلمون والأولاد يدركون أشياء كثيرة .. أما هو فقد أغلق أذنيه على تلميحاتها الخفية للزواج .. عندئذ تقرر أن تقطع صلتها به وتنصحه بأن يبحث له عن عروس ، بينما تستعد هى لأداء فريضة الحج .. ومن يدرى ، فقد تموت هناك وتدفن فى ثرى المدينة المقدسة ؟ على أيه حال ، إننا نجدها تسدى النصح لفؤاد لكى يعتمد على اثنين ليحقق هذا التغير

فى حياته : « الأول هو أنت .. والثانى ؟ .. إن الثانى .. هو الله ».

الدين :

إنه الإسلام .. ويكفى اسم محمد عبد الحليم عبد الله للدلالة على ديانته .. أما المسيحية فلا تدخل فى رواياته إلا لإبراز تفاصيل مكانية .. هنا وهناك إشارات سريعة إلى الرهبان (٣٨) فى « سكون العاصفة » صفحة ٤٢٩ سوف نلتقى بشكرى المصاب بالسل .. وفى المصحة يتقاسم الغرفة مع اثنين من المرضى يخبرانه بأنهما احتفظا بشجاعتهما ووجدا القوة ، واحد منهما استمدها من القرآن والثانى من الإنجيل .. وأخيرا فى « الجنة العذراء » صفحة ٥٧ يتذكر عم رضا كلمة المسيح علية السلام : « من كان منكم بلا خطيئة ، فليرمها بأول حجر (إنجيل يوحنا الإصحاح ٨ : آية ٧) » .

وهل أثرت الديانة الإسلامية على روايات ع . عبد اله .. إن الدين الرسمى بتفاصيله وطقوسه وما يرتبط به من معان لم تقدم للكاتب سوى خلفية اجتماعية غير محكمة ، لأن الكثير من الشخصيات لا تظهر معرفة وثيقة بها .. وفى أماكن من رواياته غمزات موجهة إلى رجال الدين .

ففى « غصن الزيتون » صفحة ١٦٢ إشارة إلى خطيب دينى متطور ، يتجاوب مع الحياة ، وقد أظهره المؤلف باعتباره استثناء من القاعدة .

وفى « لقيطة » : (الصفحات ٨٠ وما بعدها ثم ٨٧ وما بعدها)

سنلتقى فيها بالسيد الأمين وهو شخصية محترمة دمثة ، غير أنها تقليدية .. ويضحى الرجل بالكثير فى سبيل التقاليد .. ويختلف الأمر بعض الشيء فى « شمس الخريف » عند حديثه عن الليلة التى قضاها البطل فى الجامع (صفحة ١٥٠).. ولا يغيب عن ذهننا فى هذا المجال آيه النور التى تعلقها ثريا الطاهرة (سورة النور : الآية ٣٥) ، أو آيه الكرسى التى تعلقها المومس فوق سريرها (٣٩) .. أو الآية الآتية : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » (سورة النحل الآية ٩٠) المعلقة فى مكتب محام غير أمين .. إنه رياء التقاليد الدينية حين تكتسى بأحاسيس سافلة ، فتدفع شخصا مثل البتانونى لطرد الشاب رضا بينما تستمطر شفتاه رحمة الله على أبيه (٤٠) .. إن فريضتى الصلاة والصوم لا تجدان صدى تقريبا فى الروايات التى ندرسها .. أما عن فريضة الحج فهى على العكس ، ذات مكانة مرموقة فى الخطط التى ترسمها أم فؤاد « سوف تزوج بدرية ، ثم يأتى الدور على سميرة .. ويأتى بعد ذلك أداء فريضة الحج .. وأخيرا يأتى الدور على فؤاد لكى يتزوج (رواية من أجل ولدى) .. وفى نفس الرواية ، سنجد أن فريضة الحج هى أيضا ما تتوق إليه سيدة أخرى هى الست جليلة .

إن مسألة الحج تطل أيضا برأسها فى مناسبة أخرى .. أناس كثيرون يستعدون للسفر إلى مكة وقد ملأت أغانيهم وصيحاتهم ساحة المحطة بإحدى مدن الريف حيث يلتقى محبان على وشك الفراق (٤١).. وهذا الجمع من الناس ينتمى إلى إحدى الطرق الصوفية .. وبمناسبة

الطرق الصوفية ، سيلمح لنا المؤلف إلى الكثير منها سوف نلتقى فى غرفة استراحة الأستاذ البتانونى (فى الجنة العذراء) بمتصوف .. ولا يغيب عن بالنا العم خليل ، ذلك الفلاح بعزبة خورشيد .. أليس يعتبر نفسه تابعا للشيخ البسطامى الكبير (فى شمس الخريف) .. إن التقوى ليست من خصائص أهل الريف وحدهم فإنها فى المدينة أيضا وإن كانت أقل شيوعا .. إنها تكتسب عند المؤلف صفة درامية لتحول فجائى يتم مع بعض التأخير فى نفسية شخصيتين : صالح الفاسد الذى يصفه بأنه قاموس للحب (٤٢) ، ووالد فؤاد السكير .. وسنعود إلى الحديث عن هذا الأخير .

فى « فى سكون العاصفة » ـ الصفحات ١٨٢ إلى ١٨٥ ـ سنشهد مناقشة حامية حول الدين وقد بدأها بعض أعضاء الطرق الصوفية .. ويروى الشاب وحيد بشىء من السخرية أسطورة عن أحد مشايخهم .. غير أنه يستدرك قائلا بأنه يؤمن بالروح ، الأمر الذى يعرضه لهجمات شكرى الكافر .. إن كل الحاضرين سوف يهاجمون هذا الأخير ، بما فيهم المؤلف نفسه الذى يمضى فى تأمله للسماء الرائعة واصفا إياها بأنها من عمل الله الفنان العظيم .. وهذه الفقرة ذات أهمية كبيرة ، لأن مفهوم الدين عند شخصيات محمد عبد الحليم عبد الله عبارة عن مجموعة بسيطة من المعتقدات السامية التى جذورها فى نفس كل فرد بنسبة عمقه الروحى .. إن الله هو مفتاح السر .. إنه الخالق القوى الذى ينسج حياتنا (٤٣) .. وهذه الحياة لا تنتهى

بالموت .. إن العقيدة بالحياة الأخرى وبقيامة الأموات مؤكدة بصورة قوية (٤٤) .. إن الله يستمع إلى دعائنا (٤٥) . والدين ليس شيئا غريبا عن الحياة ، وإنما هو يمتزج بها امتزاجا حميما ، كما يتضح ذلك من النص الآتى :

« أعرضت عن المشكلة بذهنى وأسلمت عينى لصورة زيتية معلقة على أحد الجدران تمثل معبدا مصريا قديما ، ودفعنى التأمل فيها إلى تدبر معنى العبادة وما يلتقى تحت معناها من حب وخوف وقد يكونان بالتساوى .. وقد يزيد فيه الحب على الخوف ، أو يزيد فيه الخوف على الحب .. ثم قلت لنفسى : « لكن .. أليس فى حب الإنسان روائح من العبادة ؟ ألسنا فى حبنا نخاف ونرجو ونطلق البخور ونرتل الأدعية كما فعل الوثنيون قديما فى هياكل الأصنام ؟! ثم أليس اعتراف السيدة (ف) .. بأخطائها القديمة التى كنت أجهلها من قبيل اعتراف الوثنى بصنمه حين يدفعه لذلك الخوف أو الحب أو هما معا ؟ وحين يظن أن إلهه الصخرى يعرف دخيلة أمره ؟ الحب على كل حال هو الذى حملها على أن فعلت ما فعلت ، والحب جزء من العبادة (٤٦) .

المجتمع :

أول ملاحظة تتعلق بالمركز الاجتماعى للشخصيات .. وأهم هؤلاء هم : ممرضة ــ مهندس زراعى ــ موظفون ــ مدرس ــ صاحب مطبعة .. آخرون هم : ملاك أراضى ــ أطباء ــ مدرّسة ــ سيدة تقرض بالرهونات ــ فلاحون صغار ــ صاحب مخبز ــ قهوجى .. نحن إذن أمام عدد مختلف

من الناس ينتمى أغلبهم إلى القسم الفقير من الطبقات الوسطى .. وبالرغم من أفضال تلك الطبقة ودورها الذى لا غنى عنه فى المجتمع ، فالمعروف أن الطبقات المتوسطة هى أقل الطبقات قوة من الناحية السياسة .. ولهذا السبب فهى من الناحية الأدبية أقلها إثارة واهتماما .. لذلك وجب علينا ألا نبحث فى طيات هذه الروايات أكثر مما أرادت هذه الروايات أن تعطى .. غير أن ما تحتويه من وصف للمجتمع المصرى يعتبر مفيدا جدا للإلمام بما يضطرب فيه من مشاكل وقضايا .. أما الريف ، فإن م . ع . عبد الله يخصه باهتمام زائد .. يكفى أن نقول بأن حوادث خمس من رواياته تبدأ فى أعماقه هذا فضلا عن أن جميعها لها صلات وشيجة بالريف ، والمؤلف على علم بمشاكل الريف وهو لا يخفيها على الإطلاق .. كانت العزبة فيما مضى ملكا لشخص واحد وكان يستغلها لحسابه بواسطة عدد غفير من الأسر المعدمة ، الأمر الذى يجعله بينهم السيد المطاع (٤٧) .. وهذا التكوين الاجتماعى من شأنه أن يقوى رابطة الدم التى تعلن عن نفسها بالتقاليد التى تحل معها المآسى المؤلمة كالأخذ بالثأر مثلا ، أى أن يتم القتل انتقاما .. سوف نعثر على مثالين من هذا المرض الاجتماعى الوبيل المنتشر فى ريف مصر ، وخاصة فى الصعيد ، وهو للأسف ما زال قائما للآن (٤٨) .

الحياة إذن قاسية فى الريف .. وفى الأماكن الأخرى أيضا تجدها قاسية .. الحياة الاجتماعية كلها قاسية لا ترحم .. إن رواية « لقيطة »

بأجمعها عبارة عن هجوم ضد المجتمع .. إنه هجوم على المجتمع المجرم والمرائى لأنه يهمل اللقطاء .. وبالرواية (ص ٦١ ، ٦٣ ، ٩٣ ، ٩٥) صفحات نابضة بالصدق والقوة .. إن عبد العزيز بطل « بعد الغروب » هو أيضا ضحية من ضحايا المجتمع .. فبعد أن رفع نفسه بواسطة اجتهاده وأنقذ أهله من العوز ، نرى فيه قلبه ممزقا بسبب التقاليد الاجتماعية ، لأن الفتاة التى يبادلها الحب تتزوج شخصا تافها ولكنه غنى .. وفى « شمس الخريف » يرسم محمد عبد الحليم عبد الله ، بدون أن يبرز ذلك طويلا ، الكثير من المصائب التى يتعرض لها سكان القاهرة الفقراء .

ومن الناحية الاجتماعية ، نجد أن الاهتمامات الأساسية فى رواياته لا تتركز فى الحوادث التى يتعرض لها عن قصد .. إن ع . عبد الله ليس كاتبا اجتماعيا ، إذا أردنا بهذا المدلول الكاتب ذا رسالة (٤٩) إنه لا يسوق الحجج .. وهنا سر قوته .. إن مناخ رواياته يفرض بل ويبين أيضا أن المجتمع الذى يعيش فيه فيه حركة وبناء .. وبغير شك ، ومازالت الأخلاق تحمل رواسب قديمة .. فى « غصن الزيتون »، سنعثر على الشاب عبده المطربش .. إنه يتزوج شابة فى السابعة عشرة ولم يصحبها إلى الريف لتتعرف على والدته التى ظلت هناك .. ولا يغيب عن بالنا أن عبد الحليم عبد الله يكتب منذ أكثر من عشرين سنة .. وكثيرا ما يجعل حوادث روايته تدور فى زمن سابق لنشرها ، والواضح أنها تعبر دائما عن مجتمع فى دور الانتقال ..

فالشخصيات التى تأتى عادة من الريف ويملأ قلبها الحنين إلى تثبيت جذورها فيه ، تقطن المدينة .. إنها حركة فى ازدياد وتتفق مع الواقع التاريخى وقد عبر عنها عبد الحليم عبد الله حتى أصبحت إحدى المعالم الاجتماعية التى سجلها هذا المؤلف .. وهذا الاتجاه نحو المدن لا يقتصر على طبقة دون غيرها .. وبالرغم من عيوب المدن فإن تلك الهجرة قائمة وتشكل قضايا وقيما جديدة دون أن تنكر قيم الماضى .. إنه نظام جديد (فى المدن) يجعل الفرد والعائلة ينبثقان من المجموع والقبيلة كما هو الحال السائد فى القرية .. ونسوق فيما بعد جزءا من « التقديم » الذى وضعه المؤلف لرواية « بعد الغروب » ــ طبعه ديسمبر ١٩٥٢ .. يقول:

قصة كفاح الشاب الفقير الموهوب الذى تجبره الحياة على أن يشق طريقه بالفأس بين الصخور .. تلك إذن قصة الملايين من المصريين الذين أشرقت عليهم اليوم شمس الحرية ، فعرفوا حق الإنسان واستمتعوا بكرامة الإنسان » .

الشكل الأدبى :

إن استخدام صيغة المتكلم المفرد فى خمس روايات له تطبع كتاباته بطابع الذكريات .. هذا فضلا عن لمسة الاعترافات .. هذا كل ما يمكن قوله فيما يختص بالشكل الأدبى العام .. إنه مؤلف يكتب بلغة عربية فصحى أنيقة رغم بساطتها وسهولتها ولا يتنازل مطلقا عن الفصحى ولا يتسامح أبدا فى استخدام العامية . وكثيرا ما يعمد إلى ترصيع أسلوبه بالأفعال الرباعية (٥٠) .

ويتميز أسلوبه بتشبيهات لامعة .. إن الذكريات تتابع عزت «كالفراشة تجرى وراء يعسوب » (٥١) .. والأرملة تجد فى ابنها الوحيد « نخلة فى صحراء قد ألقى ظلا خفيفا على الرمل المتقد وقد أسقط بلحة فى وقت جوع » (٥٢) وفى بعض الأحيان تكون الاستعارات طريفة « كانت عيناها الغجريتان أمضى سلاح فى وجهها ، فأرسلت إلى الشاب الجالس تجاهها نظرة جانبية فعلت ما يفعله الماس فى الزجاج » (٥٣) .

هنا وهناك تنبض جمل رائعة فى تكوينها : « تحول الرمل إلى مادة شفافة لا تحجب ما وراءها .. إنها الارادة يا بنى .. الإرادة يا بنى » (٥٤) .

وأحيانا يتسلل الوعظ فى صورة تأملات صائبة :

« دموع الندم على الصغائر مضللة حتى تحمل على الظن أنها تذوف من أجل شىء عظيم » (٥٥) .

أو فى مكان آخر : « إن آلامنا عزيزة علينا نتخير لها المكان الذى نحفظها فيه .. حقيقة نكره الآلام ونرجو أبدا أن نتخلص منها ولكننا لا ننشرها بين يدى كل إنسان » (٥٦) .

بقى أن نقول إن محمد عبد الحليم عبد الله يرسم بريشته (٥٧).. إنه يحب الصور الواقعية .. إلا أن الرسم الذى أبدعه بريشته تدب فيه الحياة ، فيتحرك ويصبح شخصية روائية .. لقد التقينا بكثيرين منهم : الست جليلة التى تقرض الناس بالرهن .. الأستاذ البتانونى المحامى

الفاسد .. السيدة ف .. وشكرى : الملاك والحيوان .. وأجلنا الحديث عن والد فؤاد فى « من أجل ولدى » السكير .. هناك نوعان من السكيرين : سكير يشرب على انفراد وسكير يشرب مع الآخرين .. إن والد فؤاد من هذا النوع الثانى .. إننا نجده فى كل مساء مجتمعا مع زملاء له فى حانة يتصاعد الدخان منها وقد اشترك مع جماعة من السكيرين يتصدرهم شخص منطلق اللسان والفكر يطلقون عليه لقب الفيلسوف .

ويتبادل الموجودون أحاديث تهبط بهبوط نوع المشروب .. إن والد فؤاد متأثر كل التأثر بوفاة أولاده ، الواحد بعد الآخر ، وهم فى سن صغيرة .. وتتألم نفسه إذ يؤنبه ضميره : « هل من علاقة بين السكر الذى يمارسه وبين الأحزان المتلاحقة التى أصابته ؟ هل يعاقبه الله على أفعاله ؟ إنها أفكار سوداوية يتضاحك منها أصدقاؤه .. بينما يحاول هو أن يبعدها عن ذهنه فى صحوة من صحوات الإرادة والكبرياء المحطم .. والمصادفة الغاشمة نوعا ما تجعل هذا الأب المنكسر يعمل فى إدارة تسجيل المواليد .. وفى ذات يوم سيصاب فؤاد وبدرية بالمرض معا وستثور زوجته وتلومه وتقول له بأن الله ينتقم منه لعدم تقواه وعربدته وسكره » .

عند ئذ سيتخذ قرارا يعلنه فى الحانة بأنه تاب .. فعلا تتغير حياته ويتم فيه تحويل عميق ويستبدل بالزجاجة المسبحة .. وفى مكان منعزل فى البيت يقبع لقضاء وقته وحيدا يصلى ويتهجد ويقرأ الكتب

الدينية .. إلا أن هذا الإفراط فى التقوى والانقطاع المفاجىء عن عاداته القديمة سرعان ما يؤثران على صحته .. وتلاحظ زوجته هذا التحول فيه وتسر فى بداية الأمر .. غير أنها إزاء هبوط صحته تفهم السبب وتطلب منه أن يعود إلى الشراب .. إنه يتردد فى القبول .. ثم يستسلم أخيرا ليذهب إلى الحانة حيث يستقبله الأصدقاء القدامى بطريقتهم التى نعرفها !

هذه شخصية لا تنسى .. وهناك أيضا الشاب الذى يترك قريته مبكرا فى الصباح ليسافر إلى القاهرة طلبا للرزق والثروة (٥٨) أو مطاردة أحد الزنابير التى قادت طفلا إلى اكتشاف خبايا لم تكن متوقعة (٥٩)، أو تلك المناظر الرائعة التى تفيض إنسانية .. بما فى ذلك موت البقرة . البقرة الوحيدة الأليفة الموجودة بعزبة خورشيد (٦٠)

الإنسانية ! هذه هى الصفة اللازمة لمحمد عبدالحليم عبد الله .. إنه رجل يكتب للكائنات الحية .. يكتب للبشر ليستزيدهم إنسانية .. وعند بلوغه الخمسين أصبح كاتبا فى أوج إنتاجه .. غير أنه ـ فى رأينا ـ لم يعط بعد كل ما نرتقبه من أصالة فى الموهبة وكل ما نأمل من قلمه المغموس فى بحور الخبرة .. إننا نتوقع أن يعطينا مؤلفات أعلى شأنا ، سواء من ناحية الشكل أو المضمون .. ولكن يمكن الجزم منذ الآن فصاعدا بأن محمد عبد الحليم عبد الله قد فرض نفسه كروائى لدلتا مصر .. إنه روائى الدلتا المصرية ، أى ذلك المثلث الأخضر المعلق علي خريطة القطر بواسطة أكبر مدينتين فى قارة إفريقيا .. فمن البحر

الأبيض المتوسط حتى جبل المقطم ، يسبّح عبد الحليم عبد الله لتلك الأرض الخضراء الخصبة المليئة بالخيرات والمتناقضات أيضا : الإسكندرية والقاهرة والريف المزدحم وقد سقاها النيل .. إنه روائى الدلتا الداخلية ، لأنه يقودنا إلى داخل الإنسان .. سوف نكتشف فى أعماله صفحات تصف الشواطىء التى تقصفها الرياح ورمالا ساخنة هجرها الحب .. غير أنه يضفى على الإنسان قوة رائعة وسخية تسرى فيه كالنيل الذى يهب الحياة .. إن مجراه بطىء أحيانا وملتو أو به وشل .. ولكنه على طول انحناءته التى يكتسبها من الزمن ، فإن رواسبه تجدد أبدا جنة عذراء .

« سمير وهبى »

هوامش الدراسة

(أ) المترجم : كتبت هذه الدراسة فى أكتوبر ١٩٦٥ وهى بطبيعة الحال لم تتناول الأعمال اللاحقة التى نشرها عبد الحليم عبد الله وهى كالآتى :

(١) البيت الصامت : رواية طويلة (١٩٦٦) مع التقديم كالآتى :

« ليس كل من يحمل كلمة السر يستحق الدخول وليس كل من لا يحمل السر يستحق الطرد » .

(ب) الباحث عن الحقيقة : رواية تاريخية (١٩٦٦) تتناول حياة سلمان الفارسى ، ومعها التقديم الآتى : « إن لم تكن إحدى حسناتى فاغفر بها إحدى سيئاتى يا ربى » .

(ج) حافة الجريمة : مجموعة قصص قصيرة (١٩٦٧) .

(د) للزمن بقية : رواية طويلة (١٩٦٩) تعتبر نقلة كبيرة فى فن المؤلف وتستحق دراسة خاصة .

(ه) جوليت فوق سطح القمر : مجموعة قصص قصيرة (١٩٧٠) .

(٢) المترجم : الدراسة قاصرة على « روايات » عبد الحليم عبد الله ، دون قصصه القصيرة .

(٣) الجنة العذراء (الصفحات ٥ إلى ٧)

(٤) الجنة العذراء (صفحة ٣٥)

(٥) الجنة العذراء (ص ١٦٢ إلى ١٦٩)

(٦) شمس الخريف صفحة ٣٤

(٧) شمس الخريف صفحة ٣٥

(٨) شمس الخريف صفحة ٤١ إلى ٤٥

(٩) شمس الخريف صفحة ١٢٨

(١٠) شمس الخريف صفحة ١٤٩ إلى ١٥٢

(١١) شمس الخريف : هذه الجملة سنجدها أيضا فى الصفحات ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٩٦ ، ٣٠٠

(١٢) شمس الخريف صفحة ٢٨٣

(١٣) شجرة اللبلاب الصفحة ٤٧

(١٤) شجرة اللبلاب الصفحة ١٤٧

(١٥٥) شجرة اللبلاب الصفحة ٧٦

(١٦) بعد الغروب الصفحة ١٠٠

(١٧) شمس الخريف الصفحة ١١٠

(١٨) المقصود هنا بالإخلاص تجاه النفس ، أما الصدق تجاه الآخرين فهو شىء آخر .. سنجد دفاعا حارا عن هذا الإخلاص فى

« سكون العاصفة » ، صفحة ٦٦ ، ١٦٥ : غير أن الأب الذى نعرف عنه استقامته فى الحياة سيثير الدهشة فى قلوبنا بسبب ريائه وعدم حفظه السر اللذين يوحيان إليه أن يدفع ابنته لكتابة مذكرات خاصة يطلع عليها فى الخفاء (صفحتا ٣٨٠ ، ٤٠٢) .. انظر أيضا (من أجل ولدى : صفحة ١٨٠) و (لقيطة : صفحة ١٦٠) .

(١٩) شمس الخريف الصفحة ١٧٩

(٢٠) لقيطة الصفحة ١٢٠

(٢١) غصن الزيتون الصفحة ٥٤

(٢٢) غصن الزيتون الصفحة ٢٤٢

(٢٣) غصن الزيتون الصفحة ٢٠

(٢٤) بعد الغروب (الصفحة ١٣٦) .. انظر أيضا « سكون العاصفة » الصفحة ٣١٩ لهفة سوسن عند رحيل وحيد .

(٢٥) شمس الخريف الصفحات ٦٢ ، ٧٩ ، ٢٣٩ . ٢٥٢

(٢٦) شمس الخريف (الصفحات ١٩٦ وما بعدها) ، وأيضا (سكون العاصفة صفحتا ٤٢٧ ، ٤٣٧) .

(٢٧) انظر على سبيل المثال : شجرة اللبلاب صفحة ٣٠ ، وغصن الزيتون : الصفحات ٨٨ وما بعدها (خطاب عطيات) وشمس الخريف (الصفحات ١٩٦ وما بعدها) .

(٢٨) غصن الزيتون الصفحة ٤٢

(٢٩) لقيطة الصفحات ١٨٦ إلى ١٨٨

(٣٠) شجرة اللبلاب (الصفحة ٦٩) ، ومن أجل ولدى (الصفحات ٢٥ وما بعدها) ، والجنة العذراء (الصفحات ٩٠ وما بعدها) .

(٣١) بعد الغروب الصفحة ١٧٩ ، وشمس الخريف ص ٢٦١. ومن هنا خطورة مسألة العقم التى نعثر عليها فى أربع روايات له .

(٣٢) انظر مثلا الحوار الذى دار بين سوسن وأبيها فى «سكون العاصفة » (الصفحات ٣٣٩ وما بعدها) .. والمعروف أن حقوق المرأة مقررة فى الفصل السابع من « الميثاق » وهو الدستور الأساسى المعلن فى مايو ١٩٦٢ فى المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية .. انظر فى هذا الخصوص كتاب عطيات محمود جاد المسمى : المرأة فى الميثاق (المنشور بالقاهرة فى مجموعة اخترنا للطالب ، ١٩٦٢) .. ومعلوم أيضا أن هناك رأيا مخالفا يظهر فى الحديث الذى أجرته السيدة سكينة السادات مع فضيلة الشيخ حسن مأمون ، شيخ الجامع الأزهر والمنشور فى المصور بتاريخ ٢٥ / ٢ / ١٩٦٤ والتى ظهرت ترجمته الفرنسية فى « ليمساجى » بتاريخ ٧ مارس ١٩٦٥ .. ومعروف أيضا أن مجمع اللغة العربية قد رفض حتى الآن عضوية سيدتين جديرتين بالمنصب هما السيدة عائشة عبد الرحمن ، التى توقع مقالاتها باسم بنت الشاطىء ، والسيدة سهير القلماوى .. ويعود هذا الرفض إلى شهر أكتوبر ١٩٦٢ .. ومراجعة الأصوات تكشف أن هذا الرفض يكاد يكون مبيتا .. غير أن الثورة ، ولحسن الحظ ، تشجع تطور المرأة ..

والصحافة أيضا من جهتها تؤيد هذا الاتجاه .. إن جريدة الأهرام على سبيل المثال تنشر فى كل يوم أحد ملحقا من أربع صفحات بعنوان (المرأة والبيت) .. والجريدة نفسها تخصص فى كل يوم على صفحتها الأخيرة ركنا عنوانه « مع المرأة » .. وهذا الباب كانت تحرره بجداره المرحومة فتحية بهيج التى اختطفها الموت فى أوج شبابها فى ١٩٦٢..

ومن جريدة الأهرام الصادرة فى أول يناير ١٩٦٣ أمكننا التقاط العناوين الآتية : اشتراك الفلاحات فى مؤتمر القوى الشعبية .. دخول المرأة إلى عضوية مجالس الإدارة ومجالس المحافظات .. تعيين السيدة حكمت أبو زيد وزيرة للشئون الاجتماعية .

(٣٤) فى « من أجل ولدى » و « سكون العاصفة » .. وفى مجموعة « الماضى لا يعود » قصة بعنوان « الساكنة الجديدة » تدور حول مومس عرض المؤلف حالتها دون إثارة ، مع حكم عادل للدور السىء الذى يقوم به المجتمع فى هذه القضية .

(٣٥) فى « شمس الخريف » تصبح أم مختار الزوجة الثانية لعباس افندى .. وفى « من أجل ولدى » تبدأ قصة الست سميرة بكونها ضرة .. وفى « الجنة العذراء » سنجد أن والد رضا له زوجتان أيضا .

(٣٦) انظر « من أجل ولدى » صفحة ١٤١ و ٢١٧ إلى ٢١٩ .. « سكون العاصفة » الصفحات ٨٩ إلى ٩١ .

(٣٧) شجرة اللبلاب (ص ٣٦) أيضا الصفحات من ١١ إلى

١٣ ، ٢٧ : عيد الأم من الأعياد التى يحتفل بها رسميا فى ج. م .ع. منذ سنوات طويلة .. وقد صدرت طوابع بريد خاصة لهذه المناسبة .. ففى عام ١٩٦٢ مثلا كان الطابع يحمل صورة أم تحتضن ابنها ، وطابع عام ١٩٦٤ يمثل لوحة صغيرة مأخوذة من التاريخ المصرى القديم صورة الملك أمينوفيس الرابع (أى أخناتون) ومعه زوجته نفرتيتى جالسان الواحد تجاه الآخر ومعهما الأولاد جالسين فوق ركبتي كل منهما ..

(٣٨) بعد الغروب (الصفحات ١٤٧ ، ٦٦٥) .. وشمس الخريف (صفحة ١٣١) .

(٣٩) الجنة العذراء (صفحة ١٢٤ وما بعدها) .. « سكون العاصفة » الصفحة ٢٣ ، ٤٣١

(٤٠) الجنة العذراء (الصفحات ١٦٢ إلى ١٦٩) .

(٤١) سكون العاصفة (الصفحات ٢٠٩ إلى ٢١٢) .

وسنعثر على متصوف آخر فى الجنة العذراء (الصفحة ٣٥) .

(٤٢) بعد الغروب (الصفحة ١٧٨) .

(٤٣) لقيطة (الصفحة ٣٠ ، ٨٧ وما بعدها) وأيضا شجرة اللبلاب (ص ٧٣) .

(٤٤) شجرة اللبلاب (الصفحات ٩ ، ١٧٩) ، سكون العاصفة (الصفحات ٣٣ ، ٨٢) ، انظر أيضا الفقرة التى عنوانها : معنى الحياة .

(٤٥) الدعاء موجود فى مواضع كثيرة : « غصن الزيتون

(٤٣) .. شجرة البلاب (ص ٥٩) .. بعد الغروب (ص ١٤٩) .. شمس الخريف (ص ٢٥٩ .. لقيطة (ص ١٦٢) .. وفى «لقيطة» (ص ١٩٣) .. دعاء صامت عبارة عن مشاعر من العرفان بالشكر والانبهار يشعر بها محبان أمام غروب الشمس .. يقول المؤلف : « كأنهما فى صلاة إلى غير قبلة » .

(٤٦) شمس الخريف (ص ٢٣٩) : إن فكرة الاعتراف يلزم ربطها بفكرة الغفران .. أما عن التكفير فهو ظاهر بوضوح فى سياق رواية (لقيطة) . (الصفحات ٥٠ ، ٢٢ ، ٢٠٥) .. وأيضا فى شمس الخريف .

(٤٧) كانت وظيفة العمدة وراثية حتى بداية الستينات .

(٤٨) اغتيال « حمودة » فى « الجنة العذراء » .. وفى «سكون العاصفة » اغتيال والد كامل .. وهذا الأخير يحكى فى عبارات مؤثرة (الصفحات من ٢٦١ إلى ٢٦٤) كيف أن حياته معرضة للمخاطر .

(٤٩) يقصد المؤلف الكاتب الملتزم (المترجم) .

(٥٠) التقطت عينا كاتب الدراسة فى أثناء قراءاته ٣٦ فعلا رباعيا .. وهذه القائمة ناقصة بطبيعة الحال ، لأنه لم يقصد بها الحصر .. هذا إلى جانب مشتقاتها وتصريفاتها المختلفة .. وباستثناء أربعة أفعال فقط ، فإن البقية على وزن فعلل ، أى بتكرار حرفين متشابهين ، مثل تمتم ، على سبيل المثال .. وسنكتفى بذكر ستة منها : ثلاثة لها

طابع عامى مثل خرخش ، وزغزغ وشمشم .. وثلاثة يربطها معنى واحد حتى لكأنها مترادفات مثل تمتم ودمدم وغمغم .

(٥١) سكون العاصفة (الصفحة ٢١٤)

(٥٢) شمس الخريف (الصفحة ٢٩)

(٥٣) سكون العاصفة (الصفحة ٣٩٦)

(٥٤) سكون العاصفة (الصفحة ٤٤)

(٥٥) سكون العاصفة (الصفحة ٣١٠)

(٥٦) شمس الخرييف (الصفحة ١٠٦)

(٥٧) شمس الخريف : صورة السيد الخالد (صفحات ٣ إلى٥) ، أو عباس افندى (صفحات ٧٠ وما بعدها) على سبيل المثال .

(٥٩) بعد الغروب (الصفحات من ٧ إلى ٩)

(٥٩) شجرة اللبلاب (الصفحات من ٤٠ إلى ٤٣)

(٦٠) شمس الخريف (الصفحات من ٨٧ إلى ٩٠)

قصة لم تتم

ودلالتها فى التطور الروائى

عند محمد عبد الحليم عبد الله

بقلم

يوسف الشارونى

علاقتى بالصديق محمد عبد الحليم عبد الله قطعة من الحياة ، من حياته وحياتى ، فلما وقع ما كنا ننسى فى غمار الحياة أنه يقع بدت لى علاقتنا أشبه بقصة من قصصه ، فيها جمال الفن وعبق الذكرى .

ولقد ولد محمد عبد الحيم عبد الله فى ٢٠ مارس عام ١٩١٣ بقرية كفر بولين مركز كوم حمادة بمحافظة البحيرة .. وتركت نشأته الريفية بصماتها الواضحة على ما كتبه من أدب فيما بعد ، لا سيما فى أعماله المبكرة ، سواء من حيث اختياره للأماكن التى تدور فيها أحداث قصصه ، أو شخصياته التى خضعت تصرفاتها على حد تعبيره لمشاعر الريفي الحيى الخجول المتدين .. ثم تلقى علومه ما بين دمنهور والقاهرة حتى حصل على دبلوم دار العلوم عام ١٩٣٧ .. وقد انعكست هذه الفترة من حياته على قصصه كذلك ، فكانت هجرة شخصياته من الريف إلى عالم المدن الصغيرة أحيانا ، وكفاحها فى جو المدينة المزدحم المعقد أحيانا أخرى ، من موضوعاته القصصية الأثيرة .. ثم عمل محررا بمجمع اللغة العربية ، ونشر أولى رواياته بعنوان « لقيطة » عام ١٩٤٧ ، وهى الرواية التى حولت فيما بعد إلى فيلم بعنوان « ليلة غرام » .. ويبلغ مجموع إنتاجه اثنتى عشرة رواية ــ بالأضافة إلى هذه الرواية التى لم تتم ــ وتسع مجموعات قصصية ، عدا الكثير من أحاديثه الأدبية ومقالاته التى تلقى الكثير من الضوء على اتجاهاته

الفكرية وتعاون على تتبع تطوره الفنى والروحى .

وعندما أبلغت النبأ الفاجع فى ٣٠ يونيو عام ١٩٧٠ أدركت أنه قد انطفأت شعلة أخرى من تلك الشعلات القلائل التى تضىء ليل حياتنا الأدبية ، وأننى لن أعود أرى أو أستمع إلى هذه الكتلة من الأعصاب المشدودة التى تمتزج برقة الفنان وسخريته ، فتخلق سر الإبداع .

وبدت لى حياة محمد عبدالحليم عبد الله نموذجا لحياة الأديب فى لحظته الحضارية التى عاشها ، فقد فرض عليه أن يشق طريقه كأنما هو نبات شيطانى ، وكان يصف جيله بالجيل الضائع ، ضاع بين جيل الرواد الذى لقى حقه من التقدير والتكريم ، والجيل الأصغر الذى يمد الكبار يدهم إليه ، وإن أنكر هذا الجيل تلك اليد الممدودة .. إنه من جيل عانى من التجاهل أحيانا ، ومن الاتهامات والهجوم أحيانا ، كأنما يعاقب على ما قد م من فن رأى فيه آلاف القراء أنفسهم .. لكنه ـ رغم ما يحسه من مرارة ـ يأبى إلا أن يواصل طريقه ، فالفن ضرورى لروحه ضرورة الطعام لجسده .

لهذا لم يكف أديبنا عن الإبداع الفنى لحظة واحدة ، ولقد أبلغنى ـ قبل أسابيع من وفاته ـ أنه بدأ يكتب روايته الثالثة عشرة .. فلما سألته عن عنوانها أجابنى أنه لا يضع العنوان قبل الانتهاء من روايته، لأن الرواية هى التى تفرض عنوانها ، لكنه أشار إلى فكرتها الرئيسية، وبحث معى إمكان سفره إلى جبهة القتال على قناة السويس ليرى على

أرض الواقع بعض فصول ما يكتبه بعين الخيال ، فلم تكن روايته بعيدة عما ننفعل به جميعا من أحداث .. لكنه مضى قبل أن يتم ما بدأ ، لتنضم محاولته إلى مجموعة الأعمال التى لم يتمها أصحابها فى تاريخ الأدب .. فالأديب الذى وهب حياته للفن لا يدع قلمه حتى ينتزعه منه أحد اثنين : المرض أو الموت ، ومع ذلك فإن الأعمال التى لم تتم لقيت اهتماما فى تاريخ الفن لا يقل عما تم من أعمال .. إنها تصور الصراع البطولى بين الرغبة فى الحياة وظل الموت ، وهذا هو مغزاها العميق ، ومن هنا تستمد قيمتها الأولى .. أما قيمتها الثانية فتأتى لكونها أعمال بدأها الفنان وقد اكتملت خبرته ، واستوت أدواته وتجربته فهذه الصفحات التالية ، والتى كانت آخر ما خطه محمد عبد الحليم عبد الله ، تشير إلى العطاء الذى كان يهم أن يقدمه أديبنا إلى جمهور قرائه ، لولا أن الموت لم يمهله .. لقد تطور موضوعه الروائى خلال إنتاجه الوفير على طول ربع قرن ، كانت العلاقات العاطفية هى موضوعه الروائى المحبب ، وكانت الاهتمامات الأخرى أقل ، حتى تطور فى روايته « الباحث عن الحقيقة » إلى حب الحقيقة ، فقد تناولت قصة سلمان الفارسى في رحلته الروحية من الوثنية إلى الإسلام ، ورحلته المكانية من فارس إلى مكة .. وفى روايته التالية « للزمن بقية » وكانت آخر ما نشر فى حياته ، كان محور الموضوع الروائى حب المجتمع والاهتمام بمشاكله لا سيما مشكلة الحرية .. وها نحن نراه فى هذه الرواية تؤرقه قضية الحرب والموت .. إنه يستقرىء التاريخ فيرى

الحرب تدخل فى نسيجه ، فلا تفزعه الرؤية ، ولا يحاول أن يهرب مما يرى إلى حلم تسعد فيه البشرية بالتبات والنبات ، بل يواجه الحقيقة بشجاعة .. فنظام الحرب أقرب ما يكون إلى نظام الكون ـ على حد تعبير أحد الجنود فى روايتنا ـ لكنه يحاول أن يستخرج من مرارة هذه الحقيقة حلاوة ، فيعلن على لسان بطلته « منى المنشاوى » أن اللة قال لنا بلغة الطوفان ، إن الحرب فى سبيل بناء صرح كبير لا ضير عليها إن هدمت أكواخ اليتامى والفقراء ، لتستغل لبناتها وأخشابها فى بناء الصرح العالى .. والمقاتلون فى جبهات القتال يضحون وهم لا يشعرون ليخطوا لنوم النائمين طريق عالم مطمئن .. وبعد أن طافت السيدة منى تبحث عن زوجها الضابط المفقود فى حرب ١٩٦٧ ، ورأت ناسا فى المستشفيات والمصحات من الذين فقدوا ذاكرتهم أو أصابتهم عضة الحرب ، عادت بفكرة مقتنعة لا تقبل الجدل هى أن الموت فى الحروب أقل ما يجب أن يثير أحزاننا ، فإن كانت الحرب هى سوق الموت فكيف نستنكر أن تروح السلعة الأصلية .

وكانت منى المنشاوى هى التى سبق أن أعلنت صراحة أن الموت أشد الأشياء احتياجا إلى الشعور الرومانسى ، ونحن محتاجون للموت فى مصر ، محتاجون لأن نتخذه وسيلة إلى غاية ، محتاجون إليه من جديد ، وعلينا أن نعاود الموت بطريقة جديدة .. ثم تشير إلى موت المسيح ، وإلى قول غاندى إننا يجب ألا نخاف من الموت إلا إذا خفنا استبدال ثوب بثوب .

هكذا يحاول محمد عبد الحليم عبد الله فى آخر أعمالة الأدبية أن يستخلص بصيص النور وسط حلكة الظلام ، وأن يقف أمام الموت وقفة الرومانسين العظام الذين سبق أن ربطوا بين الموت والحب ، فها هو يربط بدوره بين ما يقع فى الحرب من موت وما ينتج عن ذلك من خلاص ، مقتبسا على لسان بطلته قول أحد المشهورين إن موت المسيح كان قمة الرومانسية .. وهذه النظرة من محمد عبد الحليم عبد الله للموت هى استمرار لوقفته الشجاعة أمامه ، فهو دائم التنبية إلى تلازم الحياة والموت ، بل دائم التبشير بأن الحياة أقوى من الموت ، والحب أقوى من الحرب .

ومن كانت تشغله قضية الحرب يشغله التاريخ بالضرورة .. يقول فتحى سالم أحد شخصيات روايتنا إن التاريخ الواقف هذه الأيام أمام سبورة الزمن كمدرس مرتبك ، يكتب ويمسح حتى تستقر الصورة .. والدكتور أمين الوالد الروحى لشخصيات الرواية أستاذ فى التاريخ .. ولابد أن نشير هنا إلى إحدى القصص القصيرة لمحمد عبد الحليم عبد الله ، والتى وجدت بين أوراقه ونشرت بعد وفاته بعنوان « الدموع الخرساء » ، ففيها نجد الشخصيتين الرئيسيتين طالبين بقسم التاريخ فى كلية الآداب .. ووالد أحدهما تاجر كتب ووالد الآخر تاجر أسلحة ، وأهمية هذه القصة أنها تدلنا إلى أى حد كان كاتبنا مشغولا في أيامه الأخيرة بفكرة استخدام السلاح ، حتى إننا يمكن أن نعلل عدم نشره هذه القصة أنه ربما رأى أن يطورها فى روايته التى بين أيدينا ، ففضل

التريث حتى يكتمل العمل الجديد ويتضح مدى استقلاله عنها ، فيتخذ قرارا بشأن نشرها .. ويؤيد رأينا أننا نجد إحدى شخصيات روايتنا ، وهو زهير أبو على ، قريب الشبه بشخصية أمير السلحدار فى القصة القصيرة ، فوالد كل منهما من تجار السلاح ، الأول من مريدى الدكتور أمين أستاذ التاريخ و الآخر تلميذ بقسم التاريخ وعضو فى جماعة نهضة التاريخ التى يرأسها الأستاذ شفيق .. وهو مثل منى المنشاوى فى روايتنا يحاول أن يعثر على بصيص الحياة فى ظلمة الحرب ، فيقول لصديقة أحمد فكرى ابن بائع الكتب إن الحرب تعديل مسار الحياة عن طريق جسر الموت ، بينما يحاول ابن تاجر الكتب أن يبحث عن خطر الحب الذى يحول الحياة إلى نوع آخر لا تسوده قعقعة الصلب .. ويسخر ابن تاجر السلاح من صديقه ابن بائع الكتب ، فيعلن أنه حين تقوم الحرب فربما كنت أنت ابن بائع الكتب أكثر اندفاعا منى نحو زيادة عدد الموتى ، أما ابن تاجر السلاح .. وزهير فى روايتنا شاب يخاف من الموت مع أن والده من تجار الموت ، وقد منحه الموت كنوزا ومكانة اجتماعية ، وعندما رأى والده يدبر حوادث الموت ليبيع سلاحه ، لم يعد يتصور أن الموت من فعل الله وحده .. سخريات مريرة يكشف عنها محمد عبد الحليم عبد الله وهو يفضح تاجر الأسلحة على النطاق الفردى .

وكما تدلنا هذه الصفحات التى لم تكتمل من روايتنا على مدى تطور الموضوع الروائى لدى محمد عبد الحليم عبد الله ، فإنها تدلنا

على مدى تطور شخصياته الروائية أيضا .. ولعل أوضح ما يكون ذلك هو شخصياته النسائية وعلاقاتها بعالم الرجال .. فلقد كانت نماذجه النسائية الأولى لا يشغلها إلا الحب ، ومع ذلك فإن نظرتها إليه نظرة خائفة ، وتعبيرها عنه بطريق الحوار مبنى على المداراة والتورية .. ثم تطور النموذج فى رواية شجرة اللبلاب فأصبح فتاة متعطشة للحب لها فلسفة خاصة فيه ، طبقتها على أول شاب قابلها وكان من سوء حظها شكاكا معقدا ، فلما انتحرت اكتشف أنها شفته من علته ، ولكن بعد فوات الأوان .. ويرى محمد عبد الحليم عبد الله أن حب البطلة هنا لفتاها كان شيئا يشبة الرسالة الاجتماعية ، فهى تريد أن تخلصه من البلايا التى تراكمت فى نفسة أيام طفولته ، أى أنه كان حبا مطهرا وكانت البطلة تقوم بدور المخلص .. وجاءت بطلة شمس الخريف امرأة ذات ماض ولكنها ندمت ، ولما أحبت وأرادت أن تسعد من أحبته لم تكتم عنه أمرها ، فظهرت المرأة هنا أكثر شجاعة من سابقتها لأنها اعترفت عن طريق الخطابات بالزلة التى اقترفتها والتى بسببها هجرت زوجها ، لأنها لم تشأ أن تكون إناء يشرب منه رجلان (١) .. ثم نالت السيدة « ف » بطلة شمس الخريف الغفران من حبيبها وتزوجا .. وكانت هذه إرهاصات التحول ، فقد كان ثمة اهتمام شديد يبديه أبطال

---

(١) الملحق الأدبى لصحيفة الأخبار القاهرة عدد ١٨ ، ٢٥ أكتوبر ١٩٧٠.

الروايات بعذرية الفتاة تتحدد على أساسه علاقاتهم العاطفية ، وبعضهم لا يتسامح فى ذلك أبدا مهما أبدى له من الأسباب والتبريرات كما حدث من بطل رواية « البيت الصامت » التى نشرت بعد شمس الخريف بستة عشر عاما ، فالتحول لم يتم مرة واحدة .. غير أنه نتيجة لتطور المجتمع المصرى وتطور الكاتب أصبح الاهتمام برواياته الأخيرة يتجه نحو عذرية الروح .

وصحب ذلك تطورات أخرى ، لم يعد هناك لقاء تصحبه لهفة وأشواق ، ولا فراق تصحبه صدمة أو فجيعة .. المرأة تعمل كالرجل سواء بسواء ، تعاملة معاملة الند للند .

هكذا كانت السيدة أسرار فى رواية « للزمن بقية » ، وهكذا يقدم لنا الكاتب شخصية السيدة منى المنشاوى فى روايتنا .. إنها تزور أصدقاءها فى بيوتهم ويزورها آخرون فى بيتها ، فتتلاقى العقول بينما يتوارى الجنس .. إن وجودها الأنثوى مايزال حاضرا يشيع العذوبة والبهجة والحيوية بين أصدقائها وبيننا نحن كقراء ، وقد يرغبها البعض لكنها رغبة لا توغل فى الجنس ، ولا يكون هو محور العلاقة الأساسى .. كلا السيدتين أسرار ومنى تعملان بالصحافة ، وهى مهنة تتصل بالفكر أكثرمما تتصل بطبيعة الجنس النسائى على نحو ما نجد فى رواية مثل « لقيطة » أولى رواياته التى تعمل بطلتها ممرضة ، لقد كفت المرأة فى روايته الأخيرة عن أن تكون أما أو زوجة أو حبيبة فقط، أصبح لها دور أكثر مشاركة فى الحياة العامة .

وكما تطور الموضوع وتطورت الشخصيات ، كذلك تطور الأسلوب الروائى عند محمد عبد الحليم عبد الله .. واهتمام كاتبنا بالأسلوب اهتمام قديم بدأ منذ كتب أولى رواياته ، حتى لقد حسبه ذلك عليه بعض النقاد بدلا من أن يحسبه له ، لا سيما فيما يتصل بلغة الحوار التى قيل إنه يضحى فيه بالأسلوب المعبر عن كل شخصية فى سبيل الحرص على تقديم أسلوب جميل .. حتى ليتشابه الحوار كأنه صادر من شخصية واحدة أو من المؤلف نفسه .. ولا عجب فمحمد عبد الحليم عبد الله يرى أن الأسلوب كالموسيقى التى يجب أن تصحب الرقص أو عرض الفيلم السينمائى .. فالرقص بلا موسيقى حركات نصف حية ، وكذلك العمل الفنى بلا أسلوب رقص بلا موسيقى (١) .

والصفحات التالية توضح لنا أن الكاتب لم يعد يتدخل بالشرح والتعليق كما نلمح فى روايات سابقة ، لهذا توارت إحدى سماته الأسلوبية وهى التشبيهات والحكم ، أى استخراج العام من الخاص ، وترك شخصياته تتحدث على لسانها كل منهما يعبر عن شخصية بعد أن أطلق لها حريتها الفنية .. وفى الوقت نفسه ازداد أسلوبه عذوبة وشاعرية ، وأصبح أكثر صفاء ونقاء ، كأنما يترقرق على صفحة جدول فى ليلة قمرية .

* * *

(١) المرجع السابق ص ٢٣

وبعد فإنى أعتذر للصديق محمد عبد الحليم عبد الله ولقرائه على هذه المقدمة التى أملتها ظروف خاصة .. فلقد عودنا أن تقدم رواياته نفسها بنفسها .. كما أن دراسة الأب مونتو وهو مستشرق صديق أحب لغتنا وأدبنا وأدباءنا ـ وكلمته المنشورة فى أول هذه الرواية ، تقدم مدخلا شاملا نافذا مخلصا لإنتاج أديبنا ، وأعفانى عن كثير مما كنت أريد الإشارة إليه ، لولا أن تاريخ كتابتها (١٩٦٥) لم يمكنها من متابعة إنتاجه فى السنوات الأخيرة ، وهى سنوات حملت معها ـ فى رأينا ـ بذور تطور فنى هام فى أدب محمد عبد الحليم عبد الله ، أفصحت عنه رواياته الأخيرة ـ وشارف على نضجه فى روايتنا التى لم تتم .

نوفمبر ١٩٧٠

قصة لم تتم

ـ ١ ـ

كان الليل ربيعا على الرغم من أننا فى أوائل الصيف .. مايو ؟ ربما !! فالرقم ليس ظاهرا على النتيجة لأننا نحكم على هذه الليلة بحالة الطقس فحسب ، كل شيء لين مقهور أو مخمور .. هكذا بدت الدنيا لعينى الدكتور أمين بعد أن نزل من سيارة أجرة آتيه من مصر الجديدة ، تجاه تمثال نهضة مصر الواقع فى منتصف الشارع الرحب المؤدى إلى الجامعة .

وتلفت حوله .. لم يكن هناك ناس كثير .. لكن على كوبرى الجامعة تحت الأضواء لمعت شعور سوداء وقمصان بيضاء ، وارتفعت ضحكات .

لم يبرح الدكتور مكانه فى التو ، بل ظل واقفا كأنه يذكر شيئا .. ومن الغريب أن هذا الشيء لم يكن سوى نفسه .. ماذا سيذكر ؟! إن الناسين يجدون دائما ما يذكرون .. لكن ماذا يفعل الذين لا ينسون ؟!! تذكرهم ليس إلا تجديدا للفكرة .. وها هو ذا يفعل مع تمثال نهضة مصر ما يفعله الآن مع نفسه .. يحملق فيه كأنه يبحث عن شيء جديد .. وهكذا يحملق فى ذاته .



كان القمر بدار ، وأشعته البنفسجية فوق سواد أشجار الأورمان والحيوان لم تفعل شيئا .. لمعت بها بعض الأوراق فقط ، وارتمت منها على الأرض ظلال كرسوم بدائية أو حفر أو فتحات مظلمة .. لكن الحجر المنحوت القائم على مقربة منه لمع كصفحة الماء .. ووجد الرجل نفسه يتحرك .. اتجه إلى هناك .. وقف رافعا عينيه إلى صدر تلك الفتاة التى لم تتعب من الوقوف .. تنادى الزمن ، وهمست الأشجار فى الحدائق حولها على الناحيتين ، وانحنى عند القاعدة عشب طويل ، فخيل إليه أنه يسمع تنفسا .. ضم شفتيه كعادته وهو يبتسم .. ولم يدر لم لذت له هذه الفكرة ؟ . أراد أن يقنع نفسه بالخيال .. أراد أن يجعل هذا الهمس آتيا من صدر الفتاة الناهد .. من الصدر الحجرى .. وعاود النسيم حديثه .. همس لأشجار الحديقة فيخيل إليه من جديد أن الهمس آت من صدر الفتاة .. وتلاعب ضوء القمر على الحجر فبدت الفتاة الريفية وكأنها فى جلباب من الحرير النادر يكاد النسيم أن يعبث به .. وانبعثت موسيقى من مكان مجهول فى العمارة القريبة فتعطر الموقف .. وخيل إليه أن الفتاة تدندن ..حتى كاد أن يخاف .. نخلق خيالنا ثم ترتعب أجسامنا ونخاف ما نخلقه .. وحانت منه نظرة إلى باب حديقة الحيوان الواقع على الناصية .. كانت ظلمة الشجر وضوء القمر باديين من وراء القضبان .. الظلام والنور محبوسان .. لكن .. هناك شىء تذكره بسرعة إلى درجة فرض النفس .. ذلك المتسول المشلول الذى يجلس طوال كل نهار فى الظل مادا يده المرتعشة إلى

الداخلين اللاهين فى الحديقة ، وشفتاه تتحركان بلا كلام ، أما عيناه فعالقتان بأعلى التمثال .. وقد مر عليه فى هذه الجلسة سنون كتمثال يواجه تمثالا .

ثم اتجه الدكتور أمين نحو الجامعة .. القبة والبرج .. وفى نفسه إحساس لم يشعر به مدى السنوات التى وقفها أستاذا هناك .. يمكن تصويره بما ينتاب العابد عندما يسترده الوعى من همسات العبادة .

كان الدكتور لا يكاد يسمع وقع خطواته كأن قدميه لا تلمسان الأرض .. وهو بطبيعته خفيف الحركة .. تلاميذ يرون فيه ميدان تسابق رائع .. فهو عندما يتكلم يدخل العقل واللسان فى تسابق .. فالأفكار العظيمة يلتقطها اللسان الحاذق بسرعة ، ومهارة ويدفع بها نحو السامعين .. وهو واقف ويداه على صدره مربعتين .

وها هو الآن قد قطع الشارع كله حتى وقف تحت ظل شجرة ندّت فروعها من حدائق الأورمان وغطت الشارع .. ذات أزهار برية شمها كل الربيع .. يجرى تحت أقدامها جدول على شطه الخارجى أعواد من الغاب الهندى .

لم يكن الدكتور ناسيا ما ينتظره فى البيت ، لكنه رأى أن زيارة الأضرحة هى المقابل الطبيعى لزيارة المعاهد والمعارض .. ففى الأولى يستعرضون الموت وفى الثانية يستعرضون الحياة .. وذكر اللذة العميقة التى كانت تفوح من أطراف الملاءة المعطرة بالصابون ، وأمه تتلفف بها قبل زيارة ضريح فى القرية .. مع أن القرية تحت ملاءة ظلام

كبيرة .. لا يدرى ماذا جمع بين الموقفين .. لكنه على حال لم يكن حزينا جدا ، وهو يرى مبنى كلية الاداب تحت جنح الليل .

كانت النوافذ مغلقة ، وأشجار النخيل المعروفة هناك تبدو فى الظلام سوداء الرءوس ، والباب الحديدى مقفل ، وبعض حشرات وهوام تخشخش فى أشجار السور ، على حين انتصبت مرتفعة أعواد الغاب ، وقد وسوس ماء الجدول وهو يمر فوق حجر .

كانت أفكار الدكتور تمشى هكذا هى الأخرى .. ففى هذا المكان أمضى عمره .. وفى العمر هنا أزهار برية وأشجار باسقة .. وهوام وحشرات وأصوات عالية لا فائدة فيها كصوت الطائرين اللذين يعتركان الآن فوق الشجرة ، ويتناثر ريشهما على الأعشاب .. وأصوات هامسة على أنفاس الوحى حين يتنفس مثل وسوسة الماء فى الجدول .. وربما كان بين هوام الليل ثعبان يتربص بين الحشائش لفرخ عصفور أو طائر .. كل هؤلاء كانت فى العمر .. فى عمره وفى عمر كل إنسان .. وفرك الدكتور كفيه بعضهما ببعض وأعاد تربيع ذراعيه على صدره : « وراء هذه النافذة جلس العميد بضعة أعوام .. قلد نفسه وسام العدالة ، وحمل فى سبيل حمايتها فدية القسوة .. وكل هذا صحيح مع الناس .. لكنه هو .. هو شخصيا فى واقع نفسه كان يمتص ما يريد فى صمت أخرس .. وكأنما يفعل ما يفعل بطريقة الخاصة الشعرية فى الجذور » .

لكن هذا لم يمنعنى من مخاصمته .. وإن كان رجلا شديد المراس..

فليرحمه الله !! الكرسى يخلى نفسه بنفسه أو يخليه الموت .

أما هذه النافذة فهى أحب النوافذ إلى قلبه .. طالما وقف يحاضر من ورائها ، وطالما أحس بما يقول يحمل فى يده مصباح ديوجين رمز المعرفة عند الإغريق .. لكن ليس ليبحث به عن رجل كما قال « ديوجين » متهكما وهو سكران بخمرة المعرفة ، بل حمله الدكتور وانحنى به متواضعا بين يدى كل شاب كأنما يعينه على عبور قنطرة ضيقة فى الظلام ، وفوق بحر العصر المضطرب .. وأخذ يتمشى أمام سور الحديقة ، وعيناه تروحان وتجيئان إلى مبنى الكلية .. كان أستاذا فى التاريخ .. وكان طلبته يحملون له معنى فريدا .. هو مزيج من الارتياح إلى ما يقول حتى ولو كان ملامة أو شتما .. وهو قادر على أن يقتل الخوف فى قلب من يلجأ إليه ..

وهنا يظهر السرّ فى قدرته على حل المشاكل .. ربما لا يحل المشكلة لأن المشاكل بحكم تكوينها لها عدة أقفال ومفتاح واحد لكل قفل تحمله يد فى مكان ما .

لكن الدكتور أمين حين يبتسم فى وجه أحدهم بشفتيه الواثقتين ووجهه الريفى السليم غير الوسيم ، ويبدأ فى مهاجمة الخوف تتساقط الأدوار العليا من المشكلة وتبدو بوجه أقل من العادى ، ولذلك فإن له تلاميذ وروادا مقلدين .. وببساطة جعلته شيئا شفافا .. شفافية ليست كشفافية الزجاج كينونتها فى شىء قابل للكسر ، بل هى ناشئة من صفاء الجوهر ولمس يد الثقافة ، كشفافية السماء التى ترينا النجوم

البعيدة فوق قمة جبل فى ليلة صيف .

كان عالم « الأورمان والحيوان » فى هذه اللحظات يمثل عالم الغرائز الذى عاشه الإنسان قرونا بلا نظام ثم بدأ تنظيمه .. الرغبة والقدرة نداء ووسيلة .. ولا شىء أبعد من هذا .. ووقف ينظر إلى أحد أعواد الغاب كأنما يسأله عن موطنه ، حين سمع همسات من شاب وفتاة مرا بجانبه وكأنما لا يدوسان الأرض .. لم يسمع لهما خطوات .. ولم ير بوضوح كيف تسير الأجسام ، لكن واقع الأمر كان « انسيابا » ، كان المشى انسيابا .. وكان الحديث بلا حروف لكنهما يفهمان الغمغمة .. كما فهم أنهما يتساءلان عن وقوف هذا الرجل وحده فى هذا المكان فى الليل : « ماذا ينتظر ؟! ؟! » .

وعاد الدكتور أمين إلى عالمة بعد أن مر به طيف الحب ، واصطحب عالم الغزائر فى الحديقتين ، والصمت الوقور على المبانى المقدسة حيث أقيمت للعلم صلوات : « من تحت هذه القبة تشرق الشمس .. وفى أركان هذا البرج يدق ناقوس الزمن » .. هكذا قال فى نفسه وهو يتجه عائدا إلى بيته ، فى اللحظات التى كاد يصطدم فيها بشابين فى عمر المقاتلين وعليهم سحنتهم ، وكان أحدهما يقول للآخر :

بكى صاحبى لما رأى الدرب ونه
وأيقن أنا لا حقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك إنما
نحاول (ثأرا) أو نموت فنعذرا

فرد صاحبه قائلا : ألا تعرف عددنا ؟ بعضهم يقولون « العدد فى الليمون » ، لكن من ذوى الفهم من يذكرون تلك النظرية القائلة : الله خلق الكثرة ، لكى يخلق من بينها العبقرى .

وتابعهما الدكتور بخطا رقيقة حتى أتما ما قالا ، وتوقف وهو يعرف أن شاعرا قال هذا لرفيق له وهما فى الطريق لما استطال الليل على المسافر المجروح .. وعاونه رفيقه بالدموع والرأى بل والعمر أيضا .. كانا فى طريقهما إلى من يريدون عونه فى أخذ الثأر لمقتل سيد من السادة هو والد الشاعر .

وتنهد الدكتور .. وأحس بروائح جديدة تلفح وجهه .. لم تكن روائح الحدائق ولكنها روائح الصحراء .. من يعرفها ؟! إنها رائحة الأرض ذات الجبروت ، والتى تفترس حتى بلا وحوش .. والمنبطحة دائما تحت الشمس ، والتى تسمع فيها حديثا لا يزيد على دقات القلب ووقع الأقدام ولا تشم فيها إلا رائحة الشوك والصبار .. وقال فى نفسه : « الصحراء .. قطعة من أرضنا فكانت ضدنا ، فهل نحن خناها أو هى التى خانتنا ؟! السنوات القادمة سترينا كل شىء » .. ونظر إلى مبنى الجامعة .. وهمس : « وداعا » .. واتجه نحو البيت من جديد ، وكأنما رد عليه مليون صوت بمليون تحية سمعها القلب وحده .. وهو كعادته قليل الدموع .. بل من الذين قد يعبرون عن الأسى بالابتسام .. فعن طريق الفم يحبس الضحكة أو الدمعة .. أما قلبه فحنانه من الدافىء الصامت .. وأما الليلة .. هذه الليلة فهى

مهمة عنده لأن هناك من ينتظرونه فى البيت .. ولا بد أن يذهب إليهم.

* * *

ومع روائح أزهار السور ونباتات الحديقة وليل مصر الجديدة وصل إلى سمع الدكتور أمين ضحك وهرج وجدل كانت جميعا تسطع من النور من شرفة المكتبة ..

وصرف سيارة الأجرة ودخل فناء « الفيلا » المتواضع المترفع وكان عدد من تلاميذه مجتمعين هناك .. لم يكونوا يريدون الاحتفال بليلة ميلاده .. كلا ، بل كانوا يريدون أن يسهروا معه كما تعودوا لكن مناسبة اعتزاله الخدمة كانت حافزا هاما بحكم أن بعض من حضروا لا يزالوان طلبة يعز عليهم أن يغيب عنهم الدكتور أمين .

لم يكن هناك هدايا ، وتكلم أكبر الحاضرين وكان اسمه « فتحى سالم » .

كان فتحى مكفوف البصر سليم البصيرة أقدم العارفين والرائدين للدكتور فقال : نحن هنا لأن بيتك هو المكان الذى أنجبت فيه أفذاذا هم أولادك ومؤلفاتك ، والقلوب التى خلقتها .. وأنا شخصيا لن أقدم هدية رمزية كما هى العادة لأن وقت الرموز قد مضى ، ويجب أن تقدم الحقائق ، لأن فينا من لا يزال ينتظر عودة بعض أهله من المقاتلين عبر الصحراء وأظنها لم تعد تقبل الرموز بل هى فى حاجة إلى لغة عالمية ينطق بها العربى .

وتنهد الدكتور فى مكانه على الكرسى فى صدر المكتبة ، ونظر

إلى أعلى كأنما يعد صفوف الكتب أو رفوفها ، وتعلق بصره بمجموعة جلدها فى لون زهر الرمان ثم قال :

ـ فتحى سالم !!

فرد عليه بلهجته الشجاعة :

ـ نعم يا سيدى .

فقال الدكتور :

ـ هل أنت خائف ؟! ، ولا تنس أن شعار من أحبهم هو كلمة « لا خوف » !

ضحك فتحى ملء فمه .. ضحك جدا وهو يحملق فى الظلام .. وكانت إثارة سن عطر تصل إليه من روائح الليل من سيدة جلست إلى جواره تحبس صخبها .. وظل بقيةالأصدقاء صامتين فى انتظار رد هذا الرجل الذى يكنون له احتراما .

ولما أنهى فتحى سالم ضحكه سأل فى عتاب :

ـ حسن .. لكن من قال لك إننى خائف ؟! للخوف يا سيدى ..

وصمت قليلا وعض على شفته السفلى كأنما يستجمع قواه واستطرد :

ـ للخوف حشرات صغيرة كأنها النمل ، تختار الأعالى خوفا من الغرق لتبحث عن شق تسكنه .. ولذلك فهى تختار القلوب على شرط أن تكون قلوب مشقوقة . وقلبى غير مشقوق .

فاستطردت جارته ذات العطر .. منى المنشاوى .. قالت بلهجتها

غير المبالية وصوتها الشديد الظمأ والمليء بالشهقات .. أخذت بزمام الحديث من فتحى مع أنه يكره ذلك . لكن إذا جاء الخطأ من منى المنشاوى فإن الموقف يتغير .. فسكت وحفزها على الكلام بهمس لا يخلو من تذمر :

ـ أكملى أنت .. أكملى ..

قال الدكتور للحاضرين :

ـ وعليكم أن تكونوا من الصابرين .

وضحك الحاضرون .. ضحك فتحى سالم وزهير أبوعلى وفهمى سكر ، وضحكت منى نفسها .. وضحك الباقون .

ووقفت منى لتتكلم .. وكثيرا ما تحب أن تتكلم وهى واقفة .. ولما سألوها عن ذلك قالت :

ـ أعظم الكلمات ألقاها الواقفون .

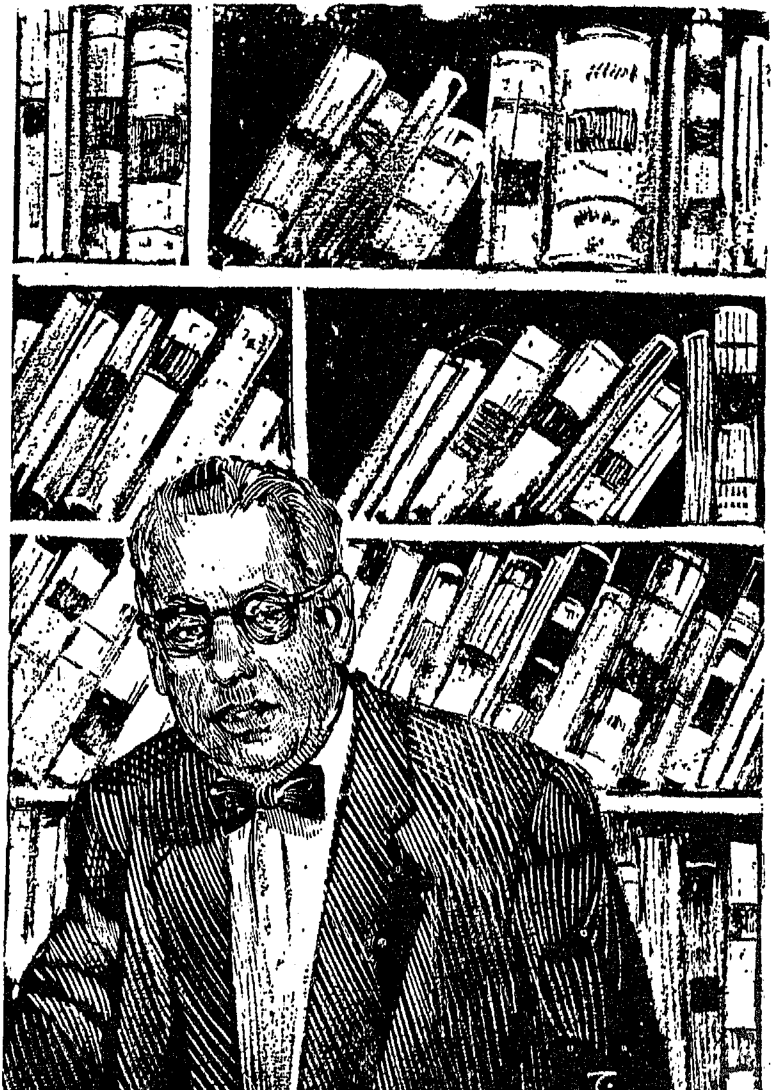
واستطردت بصوتها الشديد الظمأ :

ـ ولو كان السامعون واقفين وجب على المتكلم أن يجلس ، فالجالس يحسن السماع إلى الواقف والعكس صحيح .

ـ استطردى يا حواء !!

ـ نعم ، الأطراف (تنمّل) ، والقلوب (تنمّل) ، والشفاه (تنمل) ، والأقلام (تنمل) ، وعندئذ يصاب كل شيء بالخدر .. والنمل كله حشرة شريرة .. إننى أكرها .

وجلست وتنهدت ولعل بوادر دمع لمعت فى عينيها :



ـ وأنا صغيرة كنت أراها على الحلوى فى العسل فأرمى بها .. وفى الأطراف أكرهها لأنها كانت تهاجم يدى وأنا أكتب خطاباتى إلى حبيبى .. فلماذا وأنا أكتب خطابات حب .. أو وأنا أرسم صورة .. أما إذا وصلت إلى القلب فإن التخلص منها يريد عمرين .

ـ غير مفهوم !!

ـ عمر أفنيه فى مقاومته ، وعمر أحمى منه من يأتى بعدى .

قال الدكتور وهو يشعل لفافة :

ـ أخطأت يا منى : فالتاريخ يقول : إن كل الذين قادوا شعوبا إلى تحقيق المعجزات كانوا لا يخافون .. فاليد المرتعشة لن تحكم الإصابة.. والشفة المرتعشة لا تبين ما تريد .. على أن أعظم ما يعبر عن الخوف برعشاته هو « القلب » .

ـ يا منى المنشاوى .. اسمعى منى .. وقد لا يرتعش القلب ولكنه خائف .. وإذا كنت تخافين من النمل فأنت حمقاء .. أو لعلها رواسب طفولة كأشباح الطواحين والخرائب والسواقى فى القرن الماضى .

ـ ماذا كانت تفعل ؟

ـ لا شىء !! (وهز كتفيه .. ونفخ الدخان طويلا) .. غير أن طاحونا وخرابة وساقية كان لها عفريت معين .. وخيال أهل القرى يمنحه الحياة .. وتبادل ما يخلقه الخيال من ناس لناس يحول هذا كله مع مرور الزمن إلى ما هو أشبه بالحقائق .. فالعفريت الذى يحكى عنه الأب فى القرية والذى يسكن طاحونا خربا ، أو مكانا مهجورا يضيف الابن إلى

صفاته صفات يرى أن الحكاية أغفلتها فيجب أن تكون .. وهكذا نساهم جميعا فى خلق العفريت حتى يأتى الرجل الشجاع فيدخل هذا المكان وينادى بأعلى صوته : « يا عفريت » .. وتقشعر أجسام من بالخارج وهم يسمعون النداء .. وتردد الصدى الأماكن ، ثم يعود المنادى دون أن يخرج إليه شىء .. يا منى .. اسمعى يا منى : لو أن المنادى اعتقد أنه سيخرج إليه لخرج إليه فعلا .. لذلك فلا تخافى من أى نمل كان .. لا تخافى من الخوف .

أرسلت منى ضحكة ذات درجات مثل سلم موسيقى ، وانتظر الكل ماذا ستقول ، فقالت :

ـ لكن الحقيقة أننى أخاف من النمل .. من الممكن يا سادة أن أبيت وحدى فى مدينة بورسعيد ، لياليها الحالكة ، وباستطاعتى أن أقف فى مكان ما وأرقب معركة حربية .. وأنتم تعلمون أن زوجى لم يعد من ميدان المعركة وقد مضى عليه ما يقرب من عام ، ولكنى أخاف .. ماذا تريد منى إذن يا دكتور أمين ؟! سمعت أن الأسد يخاف من صياح الديك .. فهل معنى هذا أن الديك أشجع من الأسد ؟!

صفق فتحى سالم بكفيه خفيفا ، والتفت نحو منى المنشاوى وقال:

ـ ألا تتركين شيئا لغيرك يا سيدتى ؟

وعندئذ رد فهمى سكر محتجا :

ـ أنا شخصيا أصبحت أضيق بكل كلام .. فى هذه السنة تغيرت نظرتى « للبلاغة » .. وإذا كانت البلاغة أن يناسب المقال المقام فإن

المقام الآن يرفض كل كلام .. الصمت فى هذه الأيام بلاغة .

وتهدلت خصلة من شعره الأسود الهندى على وجهه الأبيض المستدير .. وكان ضئيل القامه سريع الحركة .. وكان وجهه منهوكا كشاب قضى اليوم كله يقطع الشوارع على قدميه .. وكانت هذه حقيقة حالة .. فهو كلما ضاق بأمر أخذ يجول فى الشوارع كأن على كل ناصية حل .. ويلذ له أن يقف على مقربة من شحاذ يتسول ليرى معالم الوجوه المحسنة ويضحك من تفرس بعض الأوجه وغرور بعضها .. كانت لعبة قديمة ولصقت به .. حتى خافت عليه أمه وقالت له : أخشى أن تكتب عليك .. وما لبث فهمى سكر أن استطرد :

ـ نحن جئنا الليله نقول للدكتور أهلا بميلادك الجديد ، فأنت ستكون ملكية أوسع .. وبعد الستين يا دكتور سنرى منك ما هو أروع .. سنكشف حقول اللؤلؤ فى بحرك دون أن نخشى الغرق .

نهضت منى المنشاوى وتقدمت فجأة نحو الدكتور ، وهى تقول :

ـ الأستاذ سالم قد قال : إننا لم نعد فى حاجة إلى الرموز .. وهديتى هذه تؤكد ما قاله .

وقدمت عليه مقفلة .. ثم فتحتها بين يدى الأستاذ فإذا بها « عدسة » صافية كبيرة ، من التى تستعمل فى قراءة الخطوط الدقيقة . ولما أمسكها الدكتور وهو يضحك قالت وهى تتجه بكلماتها نحو المجموعة :

ـ إذا كانت هذه « رمزا » على أنها هدية ، فهى « حقيقة » لا

رمز ، لأنها وسيلة للبحث عن الحقائق بين الصفحات .. (ثم بتلطف) مفهوم ؟!

ثم خطفت يد الدكتور وقبلتها طويلا حتى استرد يده منها وهو متألم القلب .

ـ ٢ ـ

أخذت الأنوار فى حجرة المكتبة تطفأ مصباحا بعد مصباح والبلكونات والنوافذ تغلق .. والدكتور يعبر البهو إلى داخل المسكن فى سكينة لم تخل من القلق والحزن .. فى الوقت الذى تحركت فية عربتان : إحدهما خضراء صغيرة الحجم يبدو عليها القدم وخضرتها فى لون الحقول ، وكان فيها منى المنشاوى أمام عجلة القيادة وإلى جوارها فتحى سالم وحده .. أما العربة الثانية فقد كان صاحبها وحيدا .. ركب وانصرف ، وهكذا كانت إرادته .. وذلك هو زهير أبو على .. كانت عربته كبيرة جدا سوداء جدا من طراز حديث جدا ، ظاهرها وداخلها يدلان على الثروة .. ومن الغريب أن زهير كان له ـ غير العربة ـ أشياء سوداء أخرى .. فحذاؤه من « الفرنى » الأسود لا يغير فى فصل من الفصول ، وشعره شديد السواد يشده إلى الوراء فى تسريحه تجعله وكأنه من الشمع ، أما الشىء الأسود الأخير عنده فقد كان جوه النفسى .

نراه فى مكتبة الدكتور مع الكثيرين أو القلائل وعلى وجهه مسحة من الغموض غير المبالى وساق على ساق .. والعليا تهتز بحكم عادة قديمة كبندول فى آخره ثقل أسود تنعكس عليه أضواء النجفة .. وكان يستمع عادة إلى الآراء التى تدور وكأنه أجنبى لا يعنيه شىء من هذه المشاكل .

ومن الممكن أن نصف زهير أبو على بأنه شاب غير مبال كثيرا ولا مسئول كثيرا .. لكن عدم المبالاة إذا تزيّى بالوجوم كان حملا ثقيلا على صاحبه وكذلك على الناس .. فمنى المنشاوى مثلا كانت تبدى فى كثيرمن الليالى عدم مبالاة شفافة لا تحمل قتامة ما يبديه زهير ، لكن هذا المظهر يحمل معه الأمل والتأمل .. أظهرت أسفها ذات ليلة .. ولما سألها الحاضرون عن السبب قالت وكأنها ربه بيت عندها تسعة من الأولاد :

ـ موجة جديدة .. ستثير جنونى .

ـ وما هذه الموجة يا منى ؟ هل هناك شىء يتعلق بالأخبار عن زوجك ؟

فمطت شفتها رافضة وقلبت كفيها آسفة وقالت :

ـ بل موجة غلاء ..

فأومأ البعض موافقين غير مبالين كأنهم يقولون فى أنفسهم : « الحديث عن ثمن ملابس قتيل أسخف حديث .. فهناك ما هو أغلى » لكن زهير قال وحده بنبرة غطت على المجموع :



لصقلم تتم

ـ معك حق .. فهناك غلاء حقيقى .

ثم عاد إلى صمته ، فقالت منى :

ـ وتتكلم عن الغلاء أنت أيضا .. (ها ها) يابن الرأسمالى ؟!!

رد وهو مطرق :

ـ ليس أبى رأس مالى !!

ـ ماذا ؟!

ـ رأس مالى أشياء غير أبى .. ومع ذلك فكل شىء رأس يا سيدة منى حتى الفتنة .

وهمس بالضحك قليلا ، فرد الدكتور أمين :

ـ ما بالكم يا أولاد ؟ يبدو أن على الأساتذة أن يصبروا على بلواهم !! إذا فقدوا سلطانهم على التلاميذ .. دعوا منى تثرثر فهى طلقة اللسان بحكم فطرتها ، وأطلقت الصحافة « عقدة طلاقتها » إن صح هذا التعبير .

كان فهمى سكر جالسا كعادته يحمل ثورة مكبوحة .. يرسل بخصلات شعره الهندى إلى الوراء وينظر بعينين مرهقتين .. أما منى المنشاوى فتتكلم الآن بلهجة باكية :

ـ كيف لا تحسون الغلاء الجديد ؟ علينا أن نستعمل أصابع الجلجنايت من الآن .

قال فتحى سالم :

ـ وهذا وقتها ..

فقالت منى :

ـ بدل أصابع (الروج) كذلك .. فقد زحف عليها (الخنافس) .

قال الدكتور أمين هادئا :

ـ عندنا أشياء يجب أن تقص هذه الأيام : الشعور المسترسلة مع المشاعر الفاترة .. وطرف كل لسان لا يعرف إلا الهمس .

سأل زهير :

ـ أى همس .. فهناك أشياء لا تقال إلا همسا .

ـ أحيانا يكون الهمس مرضا يصيب الألسنة .

ـ مثل الأصبع (المدوحس) .

ـ تمام يا منى .. السياسة ضد العبادة فى شيء فريد .. فالعبادة تتطلب الهمس ، أما الأخرى فتتطلب الصوت العالى .. ونحن حين نهمس لله حتى بالصمت فإنه يعرف ما نقول .. أما الهمس الآخر فما أكثر أخطاره !

رفعت منى عقيرتها صائحة تسأل :

ـ يعنى هل أمشى لأغنى بصوت مرتفع : « ياواحشنى » فإذا ما سألونى : من هذا أقول لهم : إنه زوجى المفقود ؟!

فقال فتحى سالم :

ـ إن عودة المفقود لا تثلج قلبك وحده .. إنهما تثلج قلوبنا جميعا .. هل تستطيعين يا سيدتى أن تتصورى جمال تفاحه عادت إلى غصنها بعد أن قطعت منه !؟

قالت :

ـ لا يمكن وقوع هذه الصورة .. لابد أن تنبت تفاحه أخرى .

ـ هذا ما أعنيه يا سيدتى .. فالإنسان ذو القيمة لا يضيع ولا يفقد ولا يموت .. إن قطعته السكين مثل التفاحة فالغصن خلاق .. وخضرته معطاء لكن علينا أن ننتظر .

كانت عينها المكحولة تستأثر بانتباه الجميع ، وكان الدكتور أمين يملأ منها عينه الضعيفة المتساقطة الأهداب .. أما فهمى سكر فقد كان ثملا بعقدة أنفها .. أما زهير أبو على فكم تمنى أن تزوره يوما فى مسكنه ؟! ومع ذلك لو فعلت لشعر بعدها بهوان .

وأما فتحى سالم فقد كان يزنها كل يوم .. عقلا وفكرا وقلما تكتب به فى مجلة معروفة ، وأخيرا .. يزنها رجلا يقع مغمض العينين فى نطاق جاذبية صنعت حواء جوهرها ، وأضافت الحضارة إلى هذا الجوهر جواهر جديدة ربما كانت فكرا أو نكتة أو بنطلونا أو سوارا حتى من معدن غير الذهب .. لكنه جميل .. لونها كأنما لوحته الشمس لكن المعصم البادى من اليدين الممسكتين الآن بعجلة القيادة كان ناصع البياض ملفوفا تماما مليئا .. ومنه تبرز الكف حيث ينزرع الإبهام فى مكان ريان بادى الحمرة ، أما الأصابع الأربع فتبدأ مليئة وتنتهى دقيقة فى طول رشيق .

كانت منى تثرثر .. وليست ثرثرتها (لبانة) فى فم حسناء .. بل هى استطراد يلمس الحياة بلاحزن كثير ولا أسى كبير ، فقد امتلأت

« منى » منه فى عهودها الأولى .. وحتى الآن .. وكان جديرا بها أن تكون نهبا لكل الناس ، ولكن .. بساطتها البادية التى تجذب الناس رجالا ونساء ، وذكاءها الكامن فى هذه البساطة ، والقدرة على قلب لوحات المآسى على جدران مسكنها حتى تكاد تتحول إلى مناظر طبيعية ـ كل هذا جعلها تقهر كل حادث مر بها .

وعندما كانت فى سن العاشرة فقدت أباها ، ولم تره إلا فى صورة معلقة على جدار .. وبعد أن خلا البيت الذى تركته رأت منى نفسها تعيش مع زوج أمها فى بيت أبيها .

ولما فقدت منى زوجها الشاب فى الصحراء فى حرب عام ١٩٦٧ ، قلبت الصورة نفسانيا على حائط بيتها ، وحاولت ألا تجعل المأساة مثل تصلب الشرايين .

وحاولت إقناع نفسها بأن المرء قادر على أن يقسر الحياة إلى اتجاه يريده .. وليس فعل ذلك داخل النفس بأصعب من فعله خارج النفس .. كانت تقرقر بضحكتها وهى تدير محرك سيارتها آخذه طريقها من مصر الجديدة إلى الحلمية الجديدة ، حيث لا تزال هناك جذور لأسر ترى ذكريات العز فى هذا الحى على الرغم من أن الكرة التى يلعب بها الصغار تدخل عليهم من النوافذ بدل طيور الحدائق القديمة .

ومنى المنشاوى فى الثلاثين من العمر ، لكن النضج جعلها فاكهة غزيرة الماء .. ماؤها يتقاطر من لمسة ، ولم تقدر المأساة التى أحاطت بها أن تؤثر على جمالها إلا بأضأل نسبة .

أما فتحى سالم فهو فى السابعة والأربعين على التقريب ، عاش فى أجواء مختلفة وتحت أحداث شديدة .

وفى العربة الصغيرة الآن تختلط رائحة العطر والبنـزين .. والحديث .. ولكن هل للحديث رائحة ؟! ذلك شيء من الذى يعرفه جيدا فتحى سالم .. فهو قد فقد بصره فى سن يستطيع فيها أن يعرف شيئا عن عالم المرئيات .. وقد يكون غريبا أن آخر مرئى يذكره .. هو .. قوس قزح .. وكان ذلك فى يوم شتاؤه ندى فى القرية .. كان يلهو مع الصبيان ومعه عقلة من القصب ويجرى على الأرض المبلولة ، والشمس مائلة للغروب .

وكان فى نفسه شئ من الأسى لكنه فى أبعد أعماقه .. لأنه أدرك منذ شهور أنه لا أم له .. لكن .. عندما رأى ذلك القوس العظيم وهو يطوق الأفق من الشرق إلى الغرب ، ورأى السماء والسحاب المتقطع الذى يجرى كأنه يهرب ، وأحس لمسات الرذاذ كأن الطبيعة قبلت وجنتيه عندما وقع ذلك كان الصبى يصرخ صرخة فيها الأسى وفرحة الدهشة .. الأسى من فقد الأم وفرحة الدهشة من عرس الطبيعة .. ودمعت عيناه .. مسح الدموع فعلقت بأطراف أصابع .. ولم يدر لم استعذب لعقها .. أحس ملوحتها كما يحس المحزون طعم النبيذ .. ولكنه أخذ يتواثب إلى أعلى كمن يريد أن يمسك فرع شجرة .

وصور له خيال الطفولة الذى يطعم البشرية جمعاء أن هذا القوس الرائع بألوانه السحرية يلمس الأرض على مقربة من دائرة الأفق ..

فشمر جلبابه وجرى نحو الشمس ليمسك بطرف القوس هناك .. كانت الشمس إلى ورائه والأرض المبلولة تكاد تزلقه .. ولكن روائح أزهار الفتنة التى تضوعت من أشجار السنط على طول الطريق والمصرف ، هدهدت قلبه وآنست نفسه .. فلم يتعب من الجرى . وبعد قليل فوجىء بأن القوس يتلاشى .. تلاشى واستعادت السماء لونها الأزرق الذى كان يشبه جلباب أمه فى اللون .. ولم يبق إلا السحاب الذى يجرى هاربا فوقف يبكى من جديد .. وارتفع بكاؤه عندما رأى المقابر على مقربة منه وقد غسل المطر أسطحها فغسل الآجر أو الجص أو الطحالب، وكان قبر أمه بلا طحلب .. كان ظهره أبيض ناصعا مثل جناح حمامة عليه بقع صغيرة .

وعلى الرغم من أن ناسا حوله فى هذا الوقت ، وقت العودة إلى الحقول ، والأبقار تجأر ، وبعض الفلاحين يغنى ، على الرغم من ذلك فقد أحس يومها بالخوف .

وعاد إلى الدار ومرض .. ارتفعت حرارته وملأت جسمه البثور .. ولم يعرف شيئا بعد ذلك من تفاصيل ما حدث .. إلا أنه أصبح بعد المرض الذى صاحبته البثور لا يرى شيئا ، فكان آخر ما أغلق عليه بصره قوسا يحمل ألوان الطيف كهدية أخيرة من الكون وقبلة من الطبيعة بالرذاذ على خده الصغير .. ورائحة أزهار الفتنة من الأشجار على طريق ذلك اليوم .

* * *

وتنهد فتحى سالم .. تنهد عميقا وضحك ولو أن فى عينيه دموعا لا تراها حتى منى المنشاوى الجالسة إلى جواره ، والتى تضوع منها عطر خيل إليه أن فيه شيئا ما من أزهار الفتنة .

كانت منى تقول :

ـ وهذا هو ملخص ما حدث ياسيدى .. ما رأيك !؟

ووقع فى الحرج .. إنه كان فى دنيا غير دنيا المدينة ، فابتسم .

ـ رأيى ؟! .. آه .. رأيى أن تعيدى ما حكيت من جديد ، فلم أكن هنا .

ضحكت ضحكة آسية ظمأى تطلق مشاعر متشابكة فى العربة الصغيرة لمعت بها أسنانها الكبيرة القطع التى تكاد تمنح الابتسامة شعاعا صافيا .. ثم استرسلت وكأن شيئا لم يحدث :

ـ آه ..

وامتلأت آهتها بالأسى .. خفق قلب الرجل الشديد المراس وود لو تعرف على هذه (المادة) ، هذه المادة التى تسمى منى المنشاوى والتى يحس وزنها كلما لقيها .. يحسه بقلبه كما تحس قاعدة الميزان ثقل امرأة وقفت عليها !!

ومن حسن الحظ أنها غمغمت بعدة آهات وسكتت ، وفرح فتحى بذلك فقد كان خياله فى هذه اللحظات شرها بحيث استطاع أن يفصله عنها وإن كانت إلى جواره .

إنه يحس التقدير والتقديس فى معاملتها له . لكنه يعرف طبعها

كما يعرف بعض مأساتها ، وهو لذلك يعاملها بخياله أكثر من أى شىء آخر .

ولكنه يود أن يعرفها (مادة) وفى هذا الجو الضيق المحبوس جو العربة أمسكت به رائحتها وصوتها وانضم إليهما صوت المحرك الرتيب .. وإذا ما هبت نسمة هواء تخيل أن خصلة من شعرها فى طريقها إلى وجهه ، وأن ذوائبها لو لامسته لصعقت ماضيه .. ماضيه المركز فى حادثتين : إحدهما فى القرية فى قلب الريف المظلم القاسى ، والأخرى فى مدينة فرنسية فى الجنوب .

ومنى المنشاوى الآن إلى جواره مفكرة حسناء راهبة محاربة قادرة ـ كما تحس نفسه ـ على أن تضع فى يده طرف قوس قزح .. خلاصة دنيا النور .. ثم تجره آخر اليوم إلى مسجد تاريخى صغير منزو فى العاصمة ، وتدعه يسجد .. فيشم مع التبتل والسجود رائحة السماء والأرض فى وقت واحد : « يا إلهى ! » .

فتحت منى راديو السيارة فلامست ذراعها ذراعه .. وانطلق الغناء خافتا عذبا .. كانت تعرف ماذا تقدم له .. لهذا الذى كان وزنه عندما سرا شخصيا لم تجعله هو نفسه يحس به .. وكان الغناء الذى انبعث بالفرنسية : « إن حرمتنى حبك فلا تحرمنى من الذكرى .. الذكرى ..

« فمن الممكن أن تأخذ معك كل شىء وأنت بعيد ..

« أما الذكرى فهى منحة الله للقلب الوحيد .. يا حبيبى !! »

وأخذت منى تهمس مع الموسيقى .. كان فتحى يتأوه .. كان يوشك أن يمد إلى حنجرته يده ليمسكها .. فقد كان كل وتر فيها يهتز ليغنى . لكن بلا صوت .. إنه يحفظ هذه الأغنية وهذا اللحن ، وفى صوته جمال لكن .. من ذا الذى يمكنه الآن أن يكون على سجيته ؟!

كان صوت الغناء يتلاشى فى وله وتململ ، كاختصار الحب والأزهار ، أو تلاشى صوت النبع من بعيد .

وانقطع الغناء وأعقبته موسيقى أهدت إلى فتحى منظر أمواج بحيرة فوق مائها الصافى طيور « النورس « باحثة عن الصيد .

وأخذ فتحى صور « منى » مرة أخرى .. اشتاق إليها « مادة » لأنها عنده الآن مثل عدة أساطير من كتب قديمة وحديثة دبت فيها الحياة .

وأول علامة من علامات التعارف عند فتحى هو أن يعقد مقابلة بين الصوت الذى يسمعه أو الذى يهمه وبين رائحة مشهورة أو مغمورة .. رائحة يعرفها .. فإذا ما أحاطت الشخصية عنده رائحة ما مع الصوت أخذت عنده مكانا ظاهرا لا يضل عنه .

فهذا صوت منى المنشاوى يفعم أنفه برائحة أزهار الفتنة والأرض المبلولة السعيدة بالغيث والتى يقبل أفقيها فى الشرق والغرب طرف « قوس قزح » ذى الألواح السبعة .

وتأوه فى صمت .. كانت الموسيقى تنساب وقلبه يتعثر ، كأنه يعبر فى الظلام .. الذى كتب عليه فى أرض مجهولة ملتوية المسالك

.. ولم يتكلم ، ولم تشأ « منى » أن تعاود الحديث .. وكان ضجيج الشوارع مثل حلم فى نوم خفيف بالنسبة لهما .. قلبها فيه شىء ثقيل .. وقلبه ملعب .. تجرى فيه الأحاسيس فى مباراة غير مضبوطة .

وكان فتحى يضحك إذ ذكر صوت الدكتور أمين المقرون فى خياله برائحة الكتب المحبوسة حين تسحب وتخرج .. وصوت زهير أبو على الذى تحيط به رائحة الأرض المتخمرة وقد رويت بعد التحاريق ، وملأتها الأعشاب الشيطانية .

أما صوت فهمى سكر !! .. « ياللكارثة .. » .. وقال هذا فى نفسه .

لماذا يذكره دائما برائحة الحبال التى شمها حديثة الفتل ، أو حملها متجها بها إلى الحقل .

أما صوت الفتى الشاب الذى جاء ليكون قارئا ورفيقا فى المدينة .. فهو يذكره برائحة « عفن الخبز » ويطعمه أيضا .. وهذا عنده مرادف للذل .

وأقفلت منى الراديو وهمست :

ـ نحن الآن قد قربنا من الحلمية ؟! ألا تشم روائح حينا ؟!

قال فى تحفظ :

ـ منى .. كنت أود أن أسمع منك ما فاتنى سماعه . لكنك تأوهت فقط ثم صمتنا .. ثم سمعنا غناء وموسيقى .. لعل هذا عبر عن موقف بعض الناس !!

ولم ترد .. لكنه كان يحس ما بداخلها .. واستطرد :

ـ نحن الآن يا منى فى هذه الفترة من تاريخنا .. لا يكاد أحدنا يبدأ فكرة حتى ينسى بماذا بدأ ، والتاريخ الواقف هذه الأيام أمام سبورة الزمن يبدو كمدرس مرتبك يكتب ويمحو حتى تستقر الصورة .

ردت بصوت غامض :

ـ هل ترى ذلك حقا ؟!

ـ ليس العيب عيب المدرس .. بل العيب يا منى عيب الضوضاء التى ملأت المكان .

ولم ترد منى وتنهدت ثم مالت نحوه .. أحس بلمس خفيف من كتفها له وقالت :

ـ سأقص عليك قصة زوجى فى ليلة أخرى .. ألا ترى أن الوقت الآن ضيق ؟!

ـ ٣ ـ

ساءل فتحى سالم نفسه فى إحدى الليالى وهو فى حجرته المحدودة المساحة ، والنسيم يلعب بأوراق شجرة عاقر فى بقية الحديقة القديمة .. ساءل نفسه : « ماذا أعمل بهذه المرأة ؟! » .

سرعان ما جاءه الجواب .. كان احتجاجا شديدا على نفسه التى يحسن عقابها إن أخطأت .. فهو رجل يمكن أن يوصف بأنه أعظم

مؤدب لنفسه .. فما يريد من منى المنشاوى ؟! وابتسم تحت الأغطية الصوفية ، ولمست أطراف قدميه قربة مليئة بالماء الدافىء وقال فى نفسه : « إنها بالنسبة إلى .. غذاء .. آه .. ألم أجر وأنا غلام حافى القدمين ذات أصيل على الأرض المبلولة لأمسك طرف الشريط ذى الألوان السبعة .. قوس قزح ؟! حدث .. ثم هرب كل شىء بألوانه .. وبقى لون واحد .. لا يسميه العلم لونا .. هو (انعدام اللون) .. بقى السواد ، لكن منى المنشاوى كطيف تسقى ظمأ لا يطفئه ماء .. ظمأ أذنى فيه إلى طريق قلبى .. لكن .. مالى أنسى شيئا هاما .. هو قصة زوجها أو مأساته .. وشيئا آخر أكثر أهمية .. هو أن منى المنشاوى تهفو حولها كل القلوب التى تعرفها » .

وكان هذا حقا .. ففتحى سالم يشعر أنها (مادة) من الممكن أن تعطيه قليلا من النور .. وفهمى سكر خفق قلبه بجوارها ذات ليلة .. جاء مصادفة وقعت هكذا .. وكان ليلتها متوتر النفس بعد حادثة من الحوادث التى تقع له فى مدرسة البنات التى يعمل معلما بها .

كان فهمى سكر خارجا من بيت الدكتور أمين ، ففوجىء كما فوجىء غيره من الذين انصرفوا قبله بأن الدكتور سافر إلى الريف لوفاة رجل مسن ، يدين له الدكتور كما يقول بأنه ضربه العصا الأولى على قدميه فى « كتّاب القرية » ، حين لم يستطع أن ينطق حرف « الظاء » كما ينبغى .

سافر ليودعه إلى مثواه الأخير عندما بلغه الخبر مصادفة .. وكأنما

كان هذا عند قلبه يعنى : « إن الوفاء لا مساومة فيه ، فالوفىّ يمسح ظهر الهرة كما يمسح ظهر البنية ، تختلف الدرجة لكن العنصر موجود ».

وكادت عزبة منى المنشاوى تدوس رجل فهمى سكر لأن النور لم يكن ساطعا .. كان الشارع خاليا وأمام الفيلا مدرسة كبيرة ، وبرودة بواكير الشتاء جعلت أنفاس مصر الجديدة بادية الروعة .. وسألت منى:

ـ ليس هنا أحد ؟!

فرد فهمى سكر :

ـ أنت هنا .. وهذا يكفى يا سيدتى العزيزة .

أحست أنه غير عادى .. هذا الشاب الذى يشم فتحى سالم رائحة الحبال عند سماع صوته ، تراه منى المنشاوى مثل حمال ربط الدنيا ثم (لفعها) ومشى .. ولم تتجه عائدة .. كانت ذوائب أشجار متوسطة العمر تخشخش فى الشارع وفى حديقة الدكتور التى غشاها الظلام .. وأخذ المنظر وقارا يناسب وقار هذا الفترة التى بدأ شبابنا فيها يرمى « بمضغة » العار من فمه باصقا إياها على الأرض الدامية ، مع كلمات ونكت كانت توزع معلبة فى السوق السوداء .

وأطّر الوقار فى المكان وجود مدرسة كلاسيكية المبنى ناصلة الألوان مرتفعة السور كانت مسيطرة على الشارع فى الجانب المقابل لفيلا الدكتور أمين .

لم تفح من منى رائحة الفتنة التى يشمها فتحى سالم ، بل فاحت

منها رائحة امرأة ندّى العرق جبينها من البرد ، وهى مع مأساتها قادرة على مسح الآلام .. أحس فهمى أنه فى الشمس وأن الظل إلى جوارها هى ..

بل روادته أفكار قديمة وحديثة هى .. » لو ترضى بأن يتزوجها مع أنها لا تزال بانتظار الغائب !! » .. ثم ردد فى نفسه ساخرا : « إنه يعتبر نفسه أيضا مفقودا .. مفقود وينتهى الأمر » .. وابتسم وسأل :

ـ إلى أين أنت ذاهبة يا منى ؟!

ـ إلى بيتى فى الحلمية .. وأنت .. بيتك هنا فى مصر الجديدة .. لكن هل تحب أن أوصلك ؟!

ولم يتردد .. بل وثب إلى جوارها .. ولما تحركت العربة كان أول ما عمله أن شد خصلات شعره هو وأعادها إلى الخلف .. ذلك الشعر الهندى على الوجة الأبيض ذى الهالات تحت العينين .

ولم يتكلم أحد .. كانت السيدة تعلم أن هذا الشاب من النوع القلق الذى يفتش فى أركان السلامة عن علامات المرض ، ثم يفتش فى أركان المرض عن علامات السلامة .

إنه يتألم مع هذا كثيرا .. يريد أن يستقر ولو استقرار عدم .. مع أنه يكره العدم فى كل صوره ويحب الوجود .. ويعتقد أن « الوجود مكتوب ردىء ، لكن العدم أردأ ما فى الوجود .. ما فى الوجود ؟! نعم .. لأن العدم لا يكون موجودا إلا فى خيال الموجود » .

ـ تكلم يافهمى .. أنا مستعدة للسماع .. أنت تبدو متعبا .

فرد مازحا :

ـ حتى ولو كان مطارحة غرام يا منى ؟!

قالت بلا مبالاة :

ـ الكلمة الأخيرة لى وأنت تعلم ذلك .

ـ لكن .. سمعنا أن نساء ركعن عند أقدام رجال .

ـ حدث .. لكن حتى هذا الركوع كان هو الكلمة الأخيرة من المرأة .. ولو حدث من الرجل ربما كان غير نافع .. لكن من المرأة .. ياللسماوات !!

وضحكت واستطردت :

ـ قل لى كل شىء تحس بعده أنك ستنام مرتاحا !!

وبدت فى عينيه كأنها أم .. تغير فجأة خط الاتجاه فى ملمح نفسها .. مسحت لهجتها أشياء يؤلم الرجل أن تمسحها المرأة .. أحست كأنها جنة فيحاء لن يتلف ثمراتها « هدهد » .. وضحكت فجأة :

ـ قل يافهمى .. فأنا لا أدرى لم تذكرنى بالهدهد ؟

ـ بالهدهد ؟ لأنك « بلقيس » يا سيدتى .

ـ أنت تحس أن فوق رأسك تاجا .. وأنت ضئيل القامة .. وأنت لا تكف عن التنقير يا فهمى .. هذا عذاب لك يا صديقى !!

شعرت بالأسى .. أحس كأنه بخس إن لم يكن جرح .. فلمس خصلات شعره وقال :

ـ لماذا هذا يا منى ؟! أنت فيما يبدو لى لا تعيشين الفترة السائدة .. أنت هادئة .. فيك أشياء كثيرة مضيئة مع أن هذه الفترة يجب أن يسود فيها الظلام كل شىء ، كما غطى الحدائق التى مررنا بها .. أنا أخاف أن أقسو عليك .. أنا لا يهمنى يا منى أن أقسو على كل الناس ، لكن عليك أنت فلا أستطيع .. وسر ذلك « أنت نفسك » إن لم تعرفى نفسك .. ربما وقع الكثير منا فى هذه السنة المشئومة .. إذ علقنا جميعا شارات على صدورنا لم تكن عزيزة .. .. وأنا واحد من هؤلاء .. كنت أسير فى شوارع المدينة بعد الفجيعة التى وقعت وأنا أعجب : لماذا لا يلطم كل رجل وجه الرجل الذى يلقاه فى الشارع ؟ .. وكنت أنت يا منى على الرغم من اعتبار زوجك مفقودا مثل مدينة أبت أن تطفىء الأنوار .. فى عينيك الفرعونيتين المكحولتين .. ما .. ما فيهما !! وابتسامتك مضيئة .. .أكاد أرى بعض أضراسك وأنت تضحكين .. ولو كنت أعلم أنك مستهترة لقتلتك !!

ـ لقتلتنى ؟! (قالتها بفرح مصطنع نادر الجمال) .

ـ آه .. فهمت .. (واستطردت تلوم) ومن أجل حبنا لمصر كنتم تهربون الحشيش المنطوق .. النكت .. عبأتموها للسيدات فى ورق صابون .. وعلى هيئة لبان ومصاصات للأطفال و (تاباكا) للمدخنين من الرجال .. عرفت الآن حقيقة أن الحب قد يستدرج الحبيب لقتل حبيبه ، ولكن .. أنت يائس ؟!

صرخ فهمى سكر كأنما لسعته على خده :

ـ لماذا أنا يائس ؟! لماذا أنت غير يائسة ؟ هذا هو السؤال !!

ـ هل أيأس لأنى فقدت رجلا لم يثبت بعد أنه مات ؟! أيها الشاب سأكتب عن طوفان نوح وعن سور الصين العظيم .. عن حوادث ضخمة فى حياة الإنسان ، قصة على حلقات مثل الحوادث هذه الأيام ، عن الطواعين وكيف قهرها الإنسان .. إننى أعيش تجربة شاقة .. أنتظر شيئا كل دقيقة .. أنا واثقة أن زوجى سيعود .. وبعد فترات الصمت التى هى أشد ساعات بكم الليل تشقشق طيور الصباح .. لم يصلنى عن زوجى خبر حتى الآن .. لكن بعد هذا الصمت لا بد أن يزقزق طائر .. أم ترانى لكى أكون « عملية » أن أعيش فى السواد ؟!

مدّد فهمى سكر رجليه حتى آخرهما ، ورمى برأسه خلفا على حافة المقعد ، ولاح له شبح بيته ، فقالت له : « هنا ؟ » .

فأجاب : عودى إلى حيث كنا ، فأنا لا أريد أن أدخل البيت !! أكاد أختنق !

ـ أنت غير طبيعى .

ـ ذلك طبيعى .. إن كنت طبيعيا لم أكن أنا .. أنا أعيش هذه الأيام بأمل أحدب .

ودارت العربة إلى حيث بدأت ، فقال الشاب :

ـ وددت أن أكلمك عن بعض أوهامى ، ففى مثل هذه الأزمات لا يفرق كثير من الناس ـ حتى العقلاء والحكماء ـ بين الوهم والحقيقة .. هل أتكلم ؟

ـ ومن يمنعك ؟

وضحك عاليا جدا :

ـ لا أحد وهل أحد يمنع أحدا عن الكلام ؟ ليس كل الناس مثلك .. يقولون للناس ما قلته لى .. آه .. يا منى .. أنت لقلبك الواسع لا تحسين بدبيب مخلوقات مثلنا تتوه عندك كأننا نمل .

هتفت :

ـ أووه .. دعنا من سيرة النمل فأنت تعرف أننى أخافه .. أخاف منه رأيت هذا (الفيلم) .. (فيلم) عن النمل الأبيض الذى يسكن كل شىء حتى أرجل الكراسى وينخبها فى صمت .

وفجأة تنهار الجدران والأشجار والناس والغابات .. هل خفت ؟!

ـ لا .. فأنا عندى نمل كثير فى داخلى ، وأنا فى هذه الأيام أقرأ تعاليم (بوذا) !!

ـ وماذا فى هذا ؟

ـ أمراء الاحتجاج فى الدنيا هم أتباع (بوذا) الآن .. آه يا منى .. وحتى مواطنهم لا تخلو من رومانسية .. والموت أشد الأشياء احتياجا إلى الشعور الرومانسى .. ونحن محتاجون للموت فى مصر .. محتاجون لأن نتخذه وسيلة إلى غاية .. محتاجون إليه من جديد .. وعلينا الآن أن نعاود الموت بطريقه جديدة .. فقد قرأت عن رجل مشهور قوله : (إن موت المسيح كان قمة الرومانسية) فيه قبلة كاذبة من (يهوذا) ، وفيه موت غير كاذب وابتسامات ... وهناك فى آسيا

قال رجل آخر : (يجب ألا نخاف الموت إلا إذا خفنا استبدال ثوب بثوب) نظرة بسيطة لكنها محتاجة إلى تدريب .. وذلك الرجل هو (غاندى) .. أنا مبلبل الفكر .. أفحص موادّ عقيدتى فأحس أنها هشة كقطعة من السكر عبث بها النمل .

كانا قد وصلا إلى مقربة من الفيلا التى يسكنها الدكتور أمين .. وعندئذ اقترح فهمى سكر أن ينزلا من العربة ويتركاها هنا ثم يمشيا فى الشارع .. حاذيا سور المدرسة الوقور القابض للنفس .. ولم تكن هناك أنوار إلا قليل .. والشجر يخشخش .. لكن سماء مصر المشهورة بالصفاء كانت شديدة الروعة .. لم يكن فى صفحتها غيوم لأن الغيوم كلها كانت الآن على الأرض .. وسار الشاب والشابة مثل شبحين .. متقاربين متلامسين فى غير تعمد .. كانت منى المنشاوى تفكر فى الليلة التى سارتها هكذا هى وزوجها صبرى عبده على حافة ضاحية أخرى قبيل الزواج .. ثم مرات بعده .. وشعرت أن الوجود يحمل ملامح الباقين وذكرياتهم بنفس الطريقة التى يحمل بها ملامح الموتى وذكرياتهم .. وخيل إليها أن هذا جزء من الخلود .

وسحبها من أفكارها صوت فهمى سكر :

ـ قالت لى ناظرة المدرسة ذات يوم : إنك يا سيد فهمى يجب أن تسمى « أمير الاحتجاج » .. فلما قلت لها بجد شديد ورضا : « أشكرك على هذا الإطراء » .. استغرقت فى الضحك فأفقت على أنها تريد عكس ما تصورت أنا .. لكن قولى لى يا سيدة منى .



ـ سأقول لك .

ـ لا تعتبرينى متطرفا إذا قلت لك إن الصحف نشرت حادثة أعجبتنىَ يوم نشرت أن راهبة بوذية زفت نفسها إلى البحر ..

ابتسمت :

ـ نعم .. كان عندنا عروس للنيل كل عام ، فهل كان هناك تقابل أفكار ؟

ـ الأمر مختلف .. هذه الراهبة ألقت نفسها بنفسها فى المحيط قربانا للطبيعة التى طالت ثورتها .. وأنا أرى أن هذا نوع من الاحتجاج .. فالبحر الذى أغرق السفن والناس لم يطو فى مياهه قلبا يعلن الاحتجاج ، بل قلوبا خائفة مستسلمة .. أما تلك الراهبة فقد شعرت أنها تخاطب البحر استعطافا أو عتابا أو احتجاجا .

ـ أنت تحب الاحتجاج .. لعل ذلك كان من خصال طفولتك ! .

ابتسم :

ـ رميت نفسى من فوق سقيفة دارنا فى القرية احتجاجا على علقة أخذتها من أمى .

ضحكت منى المنشاوى قائلة :

ـ ولم تصب ؟ غريب أنك لم تصب ! ولماذا احتججت على أمك ؟

ـ لأن الاحتجاج أمل ، والأم موضع أمل كبير .

ـ هل لو كنتِ مثلا قد ضربت من يد أبيك كنت لا تحتج ؟!

ـ أحتج فيضربنى .. ثم احتج ليضربنى .. ثم أحتج لأنه ضربنى

حتى أنال ما أريد .. إننا نحتج على من نحبهم لأن الاحتجاج عتاب ، والعتاب رسالة أمل .. غير أن عنصر التركيز يخفى الأمل والعتاب معا .. أما الذين لا نحبهم فلا نحتج عليهم بل ننافقهم .. والنفاق حب معكوس نمنحه لمن نكرهه .

وضحك ثم فتح باب العربة لمنى حتى ركبت .. ولما بدأ المحرك فى العمل خفق قلبه مثل محرك آخر .. ونظرت هى إليه نظرة جانبية ، بدت ابتسامتها شديدة الجفاء ، لكنها عندما ابتسمت ابتسامتها الكبيرة وحركت كفها بالتحيه خشخش الشجر كأن ذلك من فعل كفها هى لا من فعل النسيم ، وعند ذلك بدت غاية فى الرقة ، وقالت بصوت هامس مبحوح :

ـ فهمى .. فلنعالج الزمن إذا أصابه العرج .. لا يجب أن تركله ليسقط .. ألم تسمع هذه الحكمة من الدكتور أمين ذات ليلة وكانت دموعى تملأ عينى على « صبرى » ؟! .. وداعا قبل أن تحتج !!

وسارت « منى » بعربتها الخضراء فى الشارع الخالى .

ـ ٤ ـ

لم تذق منى المنشاوى طعم النوم طوال الليل .. كانت تدور فى شقتها الصغيرة المطلة على حديقة خلفية لبيت قديم .. كانت تتمتع بالحديقة بلا تكاليف كما قال لها « صبرى » ذات يوم .

ودخلت كل ركن وتفرست فيه كأنما لتعرف المنزل بعد أن عادت من المجلة .. وكانت هناك فى الليل مع عمل مستعجل لها .. وفى هذه الأثناء دخل عليها من يخبرها أن شابا بالباب يسأل عنها .. فأجفلت .. على الأصح أجفل قلبها .. وسألت الداخل ترى ماذا يريد ؟ فقال إنه لم يرد إخبارى بل وهو يهم أن ينصرف .

فقالت له : دعه يدخل ..

كانت منى المنشاوى بعد قضاء الواجبات السريعة جالسة تكتب عن طوفان نوح .. وكانت قد كتبت عدة صفحات .. فتوقفت ، حين لاح من الباب شاب طويل أسمر تبدو عليه ملامح الجندية ، وحيا باحترام وجلس قبل أن تأذن له .

كانت فى عينيه خزر .. وهو شىء قريب من الحول . ولذلك كان إذا نظر نظرة جانبية بدا مخيفا نوعا ما .

همست منى بسحر :

ـ أى خدمة ؟

فأشعل سيجارة بحركة واثقة وقال لها :

ـ نعم هناك خدمة .. لكنها فى الحقيقة ليست لى .

ـ هل أتشرف بمعرفة اسمك ؟

فقال لها اسمه ، ثم أردف :

ـ ومع ذلك فهذا غير مهم .. ليس المهم اسمى فالأسماء أيام الحروب أكثر الأشياء تعرضا للضياع .

دق قلب منى فأخذت تدق بظهر قلمها ظهر المكتب وتهز رأسها وتستزيد الضيف .. كان قلبها يجرى راكضا عسى أن يدرك شيئا بعيدا هو زوجها ، أما هو فقد كان يتكلم بهدوء ثم استطرد :

ـ تضيع الأسماء فى الحروب كما يضيع ظرف الرصاصة بعد أن يطلق ، وكل شىء يبدو متشابها بها مثل قرص الشمس ، كل يوم .

ـ آه .. معك حق .. لكن .. ما الموضوع ؟!

ابتسم ثابت الجنان :

ـ معك حق فى العجلة ، فأنتم هنا .. الساعات تحت أمركم .. تنظرون فى ساعات معصمكم .. وتنصتون إلى دقات البندول فى الردهات .. أما هذا فلا وجود له عندنا .. و .. أقصد فى الميدان .

شردت بعينها وبذهنها ولم تسمع بعض جمل أخرى قالها .. لكنها قالت فى نفسها « ذلك حق .. إن سرمدية الزمن وظهوره كشىء لا نهاية له لا تبدو إلا فى جبهات القتال .. حيث يؤرخون بالحوادث والانتصارات وموت الأبطال .. وقد يسرحون بأفكارهم قليلا ليسألوا الليل عن الأحباب النائمين .. ويضحون وهم لا يشعرون ليخطوا لنوم النائمين طريق عالم مطمئن !! .. آه .. » ، ثم سمعت الشاب يقول :

ـ لولا أنك معروفة ربما ضللت طريقك .

ـ ربما ..

وأخذ ينفخ الدخان نحو السقف الأبيض الذى يلمع فيه نور (الفلورسنت) وكأنه يتفقد كل شىء ليكتب عنه تقريرا حربيا ، ثم

بدت منه لمحة خاطفة تنم عن الإعجاب وربما الحسد .

قالت السيدة :

ـ غدا نستظل كلنا بالسقوف المضيئة يا سيدى .

خبط فخذه بكفه ثم قال :

ـ مؤكد ..غير أن لى صديقا كان معى فى فرقة .. واعتبر مفقودا .. وكان بعض الذين عادوا من الميدان قد أكدوا لأهله موته .. غير أنه رجع من عشرة أيام .. كنا نتحدث عن بعض المجلات التى تحارب والتى لا تحارب .. أنت من المؤكد تفهمين قصدى .. ثم استطرد فجاء اسمك .. فإذا به يقول لى : إن زوج السيدة منى المنشاوى لم يمت .

كادت تصرخ واقفة :

ـ وهل تعرفون مكانه ؟

ـ لكن أولا هل تعرفون أنتم أنه لم يمت ؟!

ونزلت دمعة من أطراف أناملها حين التقطتها بأصبع ممشوقة .. نزلت الدمعة على الصفحة الأولى التى تكتبها عن الطوفان .. فسال مداد الكلمات بعضه على بعض .. كانت هناك على الصفحة كلمتان متجاورتان خلطت بينهما الدمعة .. وهاتان الكلمتان هما : « الظلم » فى آخر سطر .. و « الانتقام » فى آخر السطر بعده !!

حملق الشاب بعينيه الخزراوتين وزم شفتيه محرجا وأعاد سؤاله .

فقالت له السيدة : نعم .. نحن نجهل ذلك .. فقد قيل لنا إنه مفقود فاعتقدنا أنه مات .



رد الشاب :

ـ هل أقول لك شيئا ؟ أنا لست مدعيا لكن اسمحى لى أن أتكلم مع أهل الفكر بلغتهم .

تنهد قبل أن يقول : « نظام الحرب أقرب ما يكون إلى نظام الكون .. فبالنظرة السطحية ترى كل شيء « تمام » فصول أربعة ولكل فصل عيوبه ومميزاته ، وربما زلازل وطوفانات ، لكن هل يفكر أحدنا وهو يرى هذا النظام للكون أن تحت صفحة البحر الساحرة أسماكا وحيتانا وكائنات تعيش على الالتهام ؟! قلما يحدث ذلك .

فالحرب ـ كنظام كلى لا يمكن أن تخلو من مآسى فردية أو جماعية حتى وإن كانت صورة مضبوطة لم يقع فيها إلا أقل ما يمكن من الأخطاء .. وأقصد بذلك أنه ليس غريبا أن يقال عن ميت حى ولا العكس يا سيدتى .

تنهدت وقالت بصوت مجهد كأنما ظل يتكلم منذ قامت الحرب .

ـ أنا شخصيا لم أستبعد أنه موجود ! فهل عندك جديد ؟!

ـ إن ماسمعته هو أن زوجك كان من الفرقة التى توغلت فى أرض فلسطين أول أيام القتال ، وإنه بحكم الموقف كان فى نشوة النصر .

كان يدوس على أرض أنت تعرفين قدرها .. لكنه فجأة سمع نداء الراديو يأمر بالرجوع .. ولم يطيعوا وتكرر النداء .. وكان لابد من الرجوع .

ونهره ضابط كان قائدا له : ألا تسمع ، فإذا بصبرى يصاب بحالة

هستيرية .. رمى كل أوراقة وبعض ملابسه وأصبح فى حالة كأنها حلم كمن يمشى وهو نائم .

ولما رجع ورجعوا إلى مواقع مدفعيتنا فى الجنوب الغربى رأى جماعة بانتظارهم .. وبدأوا يتحركون نحو الشرق .. لكن صبرى رفض ركوب العربة .. قالوا لنا : وحملوه .. ومشوا .. وما كادت السيارة تمضى بضعة كيلومترات حتى ضربت .. فمات من مات واستأنف السير من أراد .. لكنهم قالوا : إن صبرى اتجه نحو الشرق على الحالة التى وصفتها لك .

وصمت .. كأنما يريد هو أن تلبس المأساة ثوبا كفعل أى فنان .. لكن السيدة لاذت بالصمت ودارت عيونها فى محاجرها فهى تعرف أى معنى هذا !! إذا ما قيل حقا .. ومطت السيدة شفتها السفلى بصورة ملحوظة ونظرت إلى الصفحات التى سطرتها عن الطوفان وهى تقول فى نفسها : « لقد أفسد هذا رونق خيالى .. كان خيالى فى خدمتى حتى الآن .. فماذا لو أن الشاب تنازل بينه وبين نفسه عن هذه الخدمة ؟ إنه بلا شك حسن النية .. لكن القسوة فى الحروب قد تكون أشد صور حسن النية واقعية .. كتدمير الغالى لئلا يأخذه العدو ، أو كمن يطلق على زميله الرصاص قبل أن يأخذه العدو بسره .. لو أنه قال لى : « خذى أوراقة التى أخذتها من جيوبه بعد قتله .. أو خذى ساعته التى طالما رأيتما نور عقاربها معا تحت الوسادة .. وعرفت الآن من عقارب الساعة أن الزمن قد مضى ولن يعود ــ لو حدث ذلك لكان

أسهل على قلبى » .

وظل الصمت سائدا .. وارتفع فى الممر الطويل المظلم وقع خطوات عادية وبعدها وقع حذاء عالى الكعب .. ثم استتب السكون من جديد .. وتنهدت منى .

سألت : هل أعرف اسم صديقك العائد ؟

ـ نعم .. إليك اسمه ..

ثم استطرد : وعلى كل حال فلا داعى للأسى ولا اليأس ، فمثل هذه الحالات عادة تكون غير طويلة مثل تأثر الأسماع بدوى المدافع .. ثم إنى وإن كنت لم أر السيد صبرى عبده ، أرجح أنه من النوع الشديد الحساسية .

قالت السيدة فى عصبية غير ظاهرة :

ـ أشكرك ..

وعندئذ خبط الضيف فخذة بكفه .. وكان ذلك علامة استعداد للانصراف .. واستأذن وهو يملأ عينيه بشغف من وجه السيدة .. وضغط على كفها مسلما ثم دقت خطواته الثقيلة المدربة فى الخارج حتى خفت صداها .

* * *

لذلك لم تنم منى طوال الليل .. كانت تطل على الحديقة الخلفية من نافذة الحمام حيث علقت فوطة كبيرة كان يحبها « صبرى » ووضعت قطع الصابون وشفرات حلاقة وفورشة أسنان .. ومعجون جديد ..

وحيث أحضرت « منى » مع هذا علبة سجاير من النوع الذى كان يدخنه ونفثت حلقاتها حول هذه الموجودات حتى خيل إليها أنها تسمع وقع أقدامه أو غطيط نومه فى حجرة النوم المجاورة .

كانت تنظر من وراء الزجاج للعالم الخارجى .. وتدحرج الأمل البائس الذى جاد به الليلة رسول .. تدحرج هذا الأمل من ركن إلى ركن فى قلبها .

وفكرت منى !

إن صبرى من النوع الذى « يعشق » .. صداقاته « عشق » وحبه « عشق » وهواياته « عشق » .. فهو إن خيّر بين الموت مقتولا على أرض أحبها وبين حياة الرخاء التى تحدثوا عنها فى « المهاجر » لاختار الموت مقاتلا مقتولا .. فقبلة الوطن حتى ولو كانت الدامية أعظم حنوا وحنانا عنده فى حكم قلبه من أحضان العالم كله .

وربما اختلفت « منى » معه فى ليالى أنسهما .. خصوصا عندما كان الجدل يحتدم حول الزحام والهجرة .. فيقول لها : أنا لست على حق فى كل ما أقول ، فثدى مصر كان غزير اللبن حتى كان يبل قميصها .. لكن علينا بعد أن كثر الأبناء أن نربى جيلا متحركا .

واستطردت أفكارها : كان المكان الذى وصفه ذلك الشاب من الممكن أن يوصله إلى الأردن ..

والتقت دموعها بأناملها ونثرتها على زجاج الحمام فظهرت مثل دموع السماء .. وهمست تكلم نفسها :

ـ ذلك الشاب الذى كان يحاول فى معظم ما يقرأ أن يدب فى مسالك النفس والتفكير يصبح بلا ذاكرة ؟! أنا لا أصدق ولو صح هذا فكيف يصل سالما إلى « عمان » ؟ . لماذا ؟ لا أدرى ؟! . لكنها ما لبثت أن شعرت بأن الأحزان يجب أن تنسى لأن كثرتها فى ذاتها ستوجب تناسيها .. كثرتها إذا أحصيناها سلاح ضد النفس ، وإحصاؤها حقيبة هم جديد توضع فوق الحقائب .

قال لى صبرى مرة : إن البشر يجتهد فى أن يضيف لحوادث كل عصر ما يخفف من نوعيتها .. ففى عصور التبذل أضافوا التصوف .. وفى عصور الدموع استخرجوا الضحكات وخلقوا الحكايات الطويلة للمسافرين القدماء ليسلوا سفر الليل على ظهور الدواب .

واليوم .. فإن أهم ما نمزجه بشراب الخوف هو أحد شيئين : إما شجاعة وإما عدم مبالاة .. ثم انتفضت فجأة فهى لا تريد زيادة من دموع .. وألقت نظرة أخيرة على العالم الخارجي واغتسلت ودخلت حجرتها .. ثم أمسكت ورقة وأخذت تكتب :

* * *

ليس يهمنا أن نعرف اسم الأرض التى حدث فيها الطوفان .. لكن الذى يهمنا أن نعرف أن الطوفان « حرب » شنت على سكان منطقة فى الدنيا .. والذى شنها الله ، ومن الغريب أنها كانت فى الشرق ، ومن الغريب أن يكون الشرق أرض النبوات والطوفانات معا من قديم ، وأحدثت الحرب ولو أن مدبرها عظيم ـ كثيرا من الأضرار والمآسى التى

يمكن أن تسمى بلغة ما « أخطاء » ، إذ ما جنت الغزالة التى غرقت هى وحبيبها فى ساعة عناق ، وماذا عملت من الصالحات تلك التى ركبت هى وزوجها سفينة النجاة التى صنعها نوح وطفت بالمخلوقات فوق سطح الماء ؟! فكانت أول « مخبأ » ضد « غارات » الطبيعة ؟! هل يريد الله أن يعلمنا أن الطبيعة الكامنة فى شىء ما لا يمكن أن ترحم .. بمعنى أنها لا يمكن أن تتغير من أجل شخص أو عدة أشخاص .. وهو عالم بلا خطايا كبيرة .. فقال لنا بلغة « الطوفان » : إن الحرب فى سبيل بناء صرح كبير ، لا ضير عليها إن هدمت أكواخ اليتامى والفقراء لتستعمل لبناتها وأخشابها في بناء الصرح العالى .

وذهبت ناقة إلى نوح قبل أن يدرك الماء رأسها المرتفع ، فلما علمت أنه لم يحجز لها مكان لأن غيرها شغله فى السفينة ، نظرت إليه قبل الغرق وقالت بعينيها التعيستين : ألست أنا خيرا من حمار ؟ الجمال تموت والحمير تنجو يا نوح ؟ وكأنما فهم نبى الله كلامها فهو ليس أقل من سليمان الذى جاء بعده فرد عليها :

ــ إنها الحرب .. قد تهلك ما ينفع وتترك ما يؤذى .. لكن ليس كل الجمال سيغرقون .. ولا تنسى أن الحمير ضرورى وجودها . لذلك فقد حجزنا لها مكانا أيضا ..

ــ لكن ليس فينا من عصى الله فما ذنبنا ؟ إننا ننقل الأثقال ونعطى اللبن ونستحى من مزاولة (الجنس) !!

ــ إن السفينة لم تحمل الأصلح حاليا ، وإنما حملت من سيكون

أصلح فى المستقبل .. كل من سينجو وما سينجو سيكون بعد الطوفان « شيئا » جديدا .. والله حين يخلق تأتى مخلوقاته على حسب « مواصفات » ولكل مخلوق زمن ، لكنه حين يفنى يأمر النظام بأن يختفى مؤقتا ليحل الفناء .

وسألت الحمامة التى ركبت فى السفينة .. سألت ذات صباح وكانت تهدل بحكم فطرتها والماء فوق الجبال ويملأ الوديان ــ قالت الحمامة وهو يمر متفقدا خليقة الله الجديدة ، وصوت الماء يهدر فى الخارج ويلطم ألواح السرو الذى بنيت منه السفينة .. قالت :

ــ هل أنت سعيد أو حزين ؟ .. إننى أغنى على الرغم من كل ما حدث .. فهل ترى فى الغناء ما يتنافى مع حرب الله ؟! أنا خائفة يا نوح أن يفتح الله شباك مقصورتى فأطير تحت المطر وأرى ينابيع الأرض الفوارة والدوامات .. لكنى أهدل ، وذلك طبيعى ..فالأوز فى السفينة يقطقط .. والأسد يزأر.. وأنا حين أهدل أنا واليمامة أذكركم بالصلاة .. وأنا وزوجى فى هذه السفينة نذكر الناس بالحب حتى لا ينسوه فى وادى الهلاك .. وربما كان لى مهمة أخرى حين يكف الطوفان وتجف الأرض .

قال نوح :

ــ أنا لست سعيدا فليت قومى أطاعونى .. ولو أطاعونى ما حدث الطوفان .. وإن حزنت فمن الذى ينقذ السفينة ويصلى صلاة الأنبياء ويستمع إلى شكاوى « العالم المقبل » ؟!

* * *

وأول شكوى رفعت إلى نوح كانت من « القرود » . كانت حظائر القردة مصادفة أمام مقصورة النساء .. وكان على كل من هناك أن يتسلى ، فالطعام مخزون والماء مخزون .. والخوف كامن لأن « نوحا » كان كل ساعة ينظر إلى السماء من طاقة ويدعو وكأنه ماثل أمام الله .

ولم تكن هناك ملذات طوال الرحلة لأن الله كبل هذه الغريزة التى تلهى عن العبادة .

وكان نوح يمر أمام حظيرة القرود فصاحت به قردة فوقف .. قالت له وهى تنظر فى كل اتجاه حتى إن رأسها كان يصطدم بالسقف :

ـ هذه الحظيرة بابها مقفل ومفتوح معا لأن بابها ذو قضبان .. ونحن القرود بطبعنا نحب الحركة .. وإن لم نجد شيئا نحركه أخذنا فى تحريك الهواء .. ما ذنبنا ؟! ألم يكن من الممكن أن تترقى سلالتنا فتصير أحسن من الإنسان ؟! لكن الذى حدث هو أننا صرنا قرودا . وضربوا بنا المثل فى البشاعة لأننا أشبهنا الإنسان ولم نصل إليه .

ابتسم نوح وأحس أنه حقا « حديث قرود » .. وكانت القرود أحيانا تستغنى عن الكلمة بالحركة أو تلوين الصوت .. واستطردت تقول :

ـ أنت ترى أننا ظلمنا ونحن نطالب بأحد أمرين : إما أن نرتقى فى العالم الجديد بعد الطوفان فنكون كالإنسان سواء بسواء حتى ننجو من عار التهكم .. وإما أن يكون الإنسان مثلنا تماما .. فعالم المستقبل لا شك أساسه المساواة .. وعلّمونا العمل إن شئتم وسترون المعجزات

من صنع أيدينا .. ثم إننى أشكو صداعا ..

هتف نوح مستغربا :

ـ تشكين صداعا !!

وتحسس جيبه لعله يجد فيه عشبا (مسكنًا) فلما لم يجد قال لها : تحملى .. فالصداع أخف ما يشكوه سكان هذا المخبأ . وستنمو أعشاب مسكنّات الآلام فى عالم ما بعد الطوفان وستملأ الدنيا سهول الأرض وقمم الجبال والوديان .

ـ مادمت لا تجد « مسكنا » فأزل من أمامنا أسباب الصداع .. ألم يكف أننا طائفة ذليلة .. انقلوا الحمرة إلى خدودنا انصافا لنا فإن هذا لن يناسب عالم المستقبل .. أبدا .. أبدا ..

ـ لا تدخلى فى التفاصيل فالقرود ثرثارة .. قولى ما سبب صداعك !!

أشارت القردة إلى مقصورة النساء : فلتنقلوا المرأة من أمامنا فقد أجهدتنا تماما .

وصمتت قليلا ووضعت كفها على جبهتها كأنما لتكفكف صداعا ، واستطردت بلغة هامسة جدا : نبىّ الله لقد أتعبتنى المرأة .. قلدتها فى حركة عملتها هى دون قصد فانتقمت منى .. صرت كلما عملت حركة قلدتنى .. ومشى الأمر هكذا كل منا يقلد الآخر حتى أتعبتنى .. آه يا رأسى .. أين العشب المسكن .

قال نوح : إن ترتيب هذه الحظائر والمقاصير من وحى الله ، وأنا لا



أملك شيئا .. فلتعيشا طول الدهر والتقليد فى دمكما !!

* * *

أظلم اليل و« المخبأ » الذى بناه نوح يعوم فوق سطح الماء .. وكفت « الغارة » .. انقطع الصفير الذى كان يرسله الماء الفائر من الأرض والمنساب من السماء .. لكن آثار الغارة كانت فى نفوس « عينة » العالم الجديد الذى سار به نوح نحو نهارات المستقبل ولياليه .

وجلس نوح يفكر .. كان مهموما ، ولو أنه فى عز الشباب إذ لم يجاوز الخمسمائة سنه إلا بقليل .. وتأوه .. إذ وجد أن العمر لا يزال أمامه .. ربما عاش قدر الذى مضى .. والبناء لا يكثر عليه وقت ولا زمان .. ستبنى أماكن ومدن ودور وقصور وأكواخ .. ومن الضرورى كذلك أن تبنى مخابىء للغارات القادمة .. فهو يحس بقلب النبى أن الطوفانات لن تكف عن الأرض حتى يسقط قانون « الجاذبية » .. ويهوى كوكب الأرض فى الفراغ .. هائما .. كوكب هائم .. ربما مع كواكب أخرى مجنونة .

وسأل نوح نفسه : هل مقدر علىّ أن يكلفنى الله بهذا ؟!

وهز رأسه وصمت .

عاودته أفكاره عمن رآهم يغرقون من ناس وغير ناس ، ولم ينس هتاف ابنه الذى أراد الله له الهلاك مع أشياء كثيرة .

حن قلب النبى فتوسط له عند الله .. لكن ظهر أن الله لا يقبل

الوساطة .. وعرف نوح أن هذه طبيعة الحروب فقد اعتبر الله ابنه خائنا له .. خائنا لله . فغرق من فقدوا العقيدة مع أنواع من الحيوان دثرها الطوفان ، لأن الله لم يرد « لعينة » منها بقاء .. فهلك مع الهالكين .

* * *

وقال بعض من فى السفينة :

ـ كانوا يصرخون فى الأرض قبل الطوفان وهم حزانى على « الزفت والقار » وقالوا : حتى الزفت أخذه نوح .. لم يكتف بقطع الأشجار والعرق الذى تصبب من المؤمنين حتى أخذ يجمع « الزفت » من كل مكان .. وضحك بعضهم قائلين : « سفينة على أرض يابسة ثم يطليها بالزفت والقار ؟! ماذا فى رأس هذا الرجل .. لقد سقط من فوق أشجار السرو رجال ومات تحتها رجال وجرحت من الحمل ظهور بشر ودواب .. وسال الدم فى سبيل بناء هذا « المخبأ » .. فهل كنا نعرف .. ليت الكل كانوا يعرفون !! »

ولما استقرت السفينة على الجبل وعادت الحمامة بعد أن أرسلها نوح وفى فمها غصن أخضر من الزيتون ليبشر بالحياة الجديدة .. حمل نوح رأسه الكبير بين كفيه وجلس وأطرق يفكر .. يفكر .. يفكر .

ـ ٥ ـ

فى هذه الليلة يبدو زهير أبو على خائفا ، خائفا ..

بدأت طلقات النار من الضفة الغربية حيث يعسكر المصريون تشق ظلام الليل لتوقظ الصحراء وتشق للذين ماتوا هناك من أبنائنا أضرحة جديدة ، وأخذ الناس يتهامسون :

ـ هل هذا صحيح ؟!!

وزهير شاب يخاف الموت .. مع أن والده كان من تجار الموت .. وقد منحه الموت كنوزا ومكانة اجتماعية فى ريف البحيرة ، بل فى مدينة دمنهور نفسها .

كان تاجر سلاح .. دكانه يقع فى ميدان صغير له بابان ولصاحبه وجهان يستطيع أن يرى من أحدهما مئذنة المسجد وأن يرى من الآخر برج الكنيسة .. وكانت تجارته مرخصة لكن ما وراء هذا كان هو سر مكاسبه .

وكان يؤم دكانه ناس كثير : أفنديه .. وفلاحون .. وأعراب .. وضبا ط مباحث .. ورجال دين ..

كان رجلا بارعا فى شق الطرق تحت الأرض ، وعلى يديه اللتين

تفوح منهما رائحة المسك يوم الجمعة اشتبكت أسر وتقاتل ناس .

وكان ذلك فى الريف القديم أيام كان كل من يسكن القرية يحلم بأن يكون يوما ما سيد أرضها وناسها ومواشيها .

ولم يكن زهير يعرف تفاصيل حياة أبيه لكن آثار الأعمال تغنى عن وصفها .. فمال أبيه ينبوع يتدفق .. والرواد من كل لون لا عدد لهم ، وكان يسمع همسا بين أبيه وبين بعض الناس .. بالعيون .. والشفاه تتحرك فى صمت يفهم منه أن حادثة قتل قد تمت « بعون الله »!! وأن فريقين فى قرية ما لابد أن يشتبكا طويلا .

وكان الغلام يستبعد كل هذا عندما يمرض على الخصوص .. ولذلك فهو إذا مرض خاف من الموت .. أما إذا قامت حرب فإنه يتصور أنه سيكون قتيل أول رصاصة .

وزهير يجمع المال بلا إراقة دم فهو ليس تاجر موت لأن الزمان قد مضى على ذلك النوع فى الريف : وهناك سبب آخر هو أنه لا يحبه .. فإذا تاجر أبوه فى الرصاص وأوقع ناسا فى ناس لتزدهر تجارته فى ربوع النظرة القديمة للملكيات ـ فإن زهير يتاجر بطريقة أحدث فى سلع قليلة أو مختفية أو تخفى لكى تصبح عزيزة المنال .

فالمال كثير .. وكذلك الشباب .. لكن .. إنه كما قالت منى المنشاوى : « عندما أراه أحس أنى أمر تحت شجرة ظلها بارد يجعلنى أتوق إلى الشمس » .. ولعل صلته بالدكتور أمين وإن لم تكن وثيقة ترجع إلى أنه يتأمل الدكتور ومن حوله فى جلساته .. فالدكتور رجل

مطمئن .. عنده شيء يقدر على منحه للخائفين .. وزهير معجب به و« بمنى » وكم يود أن ينال لحظة من تفكيرها فى إحدى الليالى .. لكنه يحس أنها تنظر إليه على أنه قطعة من رخام جهزت لتوضع على مقبرة .. لا يزيد على ذلك !! فالحياة عند منى معناها « سعة الموجة التى يحدثها الشخص عندما يلقى به القدر على صفحة الدنيا .. »

وزهير أبو على حياته « فى ذاته » ، ومنى المنشاوى ترى أن أضيق أنواع الحياة إذا استعملنا المقاييس هو ما كان منحصرا « فى الذات » ، وأن أحط أنواع الحياة إذا استعملنا الموازين هو ما كان فى الذات » .. ومنى ـ حتى بين رؤسائها وأصدقائها وزملائها ترى أن حياة شخص ما هى فى الحقيقة خارج ذاته .. فإذا ما كان العمل خارج الذات يدور ويدور ليعود إلى الذات بطريقة مسروقة فهذا نوع من الشعوذة .. فإذا كانت منى المنشاوى معجبة باحتجاجات فهمى سكر ، فما ذلك إلا لأنها تراه يحترق لإصلاح شيء فاسد حتى ولو من وجهة نظره .. ولا بأس عنده « وكم ضحكت لهذا » أن يكون راهبا بوذيا يلقى بنفسه فى اليم أو يشعل فى نفسه النار .

وفتحى سالم عندها شخص مبجل .. يعيش فى العالم الذى لا لون له بأفكار مضيئة كأنها نفس الليلة التى أقفل فيها بصرة عن المرئيات .. وهو يقيم فى سكن يمكن أن يسمى « فيلا » قديمة ـ فيها حديقة مندثرة إلا من أشجار لا تحتاج إلى خدمة .. ومعه شاب كان زميل صباه .. جاء معه ليقرأ له ويقوم بحاجاته الثقافية .. ورأى فتحى أنه

أرض حرام ألا تزرع ـ فزرعها بالعلم .. علمه .. فأصبح الشاب موظفا فى بنك الجيزة يعد كل يوم آلافا من الجنيهات .

وفتحى سالم فى نظر منى المنشاوى راحة للقلب .. فى يده مفاتيح ليس من الضررى أن تراها العين .. مفاتيح للنفس .. وهو بها قادر على أن يجعل المهموم يرى الدنيا وألوانها .

* * *

أما زهير فهو شاب ممشوق جاوز الثلاثين من العمر لكن كيانه كله داخل بدلته الأنيقة .

يسكن فى عمارة على النيل على مقربة من كوبرى الزمالك فى الطابق العاشر .. حيث يرى ذوائب أشجار الكافور على طريق امبابه الجيزة .. مثل شعور نساء لا تسرح أبدا .

والليل ظلام والجو صائف .. لكت الأنوار المنكسة ترسم على أرض الشوارع دوائر متباعدة لتهدى السائرين .

وهو فى الشرفة ينظر إلى النيل .. هادىء .. رقراق الصفحة .. لا هو نهر منحدر .. ولا هو راكد .. بل مثل شخصية تاريخية لم تشوهها أحداث الزمان .. شخصية محنكة رسمت تجاعيد الحكمة على وجهه الصافى .

غير أن زهير خائف .. أحيانا يقول : إن والده أصبح شيخا وأن الله لم يعطه جزاء كافيا .. وبما أن زهير هو الولد الوحيد بين أختين زوجتين ، مات زوج إحداهما فى الحرب فهو يعتقد من صفحات مجهولة

قرأتها بصيرته عن أبيه ـ أن والده سيشهد موته .. معقول .. معقول جدا عند زهير ..فالريفى فى الغالب يؤمن بالجزاء الإلهى مثل إيمانه بالنتيجة العلمية .. إذن فلماذا لا يعيش والده بقلب حزين ؟ لأنه باع الأحزان للناس .

وهو فى الحقيقة يصف مخاوف نفسه .. إذ يصف مخاوف أبيه وقد أصابه الخوف الذى يعاوده بين حين بما يصيب الأرض من الزلازل ـ فبعد الزلازل تنشط الأحياء إلى التعويض « بالتناسل » .

وزهير مصاب بهذا المرض « إذا سميت الظاهرة المنتظمة مرضا » فهو إذا خاف حن إلى المرأة وكأنه يوقن أنها تمنحه الطمأنينة حين يسمع صراخ الجسم فيغطى على همس الخوف .. فعربدة السكر .. وعربدة الجنس .. وتوتر المقامر .. كل هذا صراخ يغطي على همس الخواطر التى لا يرغبون فيها .

ومن المثير لأسى الإنسان أن يهرب من همس الخواطر الذى قد يضايقه إلى صراخ يفقده الوعى وقتا من الزمن .. لكن زهير الآن ينظر إلى شجرة قصيرة من أشجار الكافور على طريق الجيزة ـ إمبابة .. فى الشاطىء الثانى للنيل أمام عينيه .. ولم يدر لم تصورها امرأة .. رأسها المورق شعر .. وجذعها المقوس .. ولها نتوء خاله أردافا .. ويداعبها النسيم فكأنها تستجيب لغزل رجل !!

وملأ الخوف جسمه .. الخوف من الموت .. ثم هدأ قليلا .. ثم مر فى النيل شراع أنيق تحته ملاحون غرباء عن المدينة لعلهم من أقصى

الجنوب يغنون فى حزن وبصوت خافت .

وفتح الراديو فإذا به يسمع حديث الحرب .. سارع فأغلقه .. وأدار الراديو فجاء صوت ندى كينبوع الجبل .. وهو صوت لمغنية مشهورة غير مصرية ..فاندمج وأحس أن الماء يرطب قلبه وأن الظلام المخيم على الشارع ظل كاذب .. « كل شىء مضىء » .. وضحك بصوت سمعه هو .. فهو يعلم أنه ليس هناك شىء مضئ تماما ، وبأقصى استطاعته إلا « منى المنشاوى » .. لماذا ؟ ذلك سر .. سر تكوينها الإلهى على الرغم من المصاعب التى عانتها فى حياتها .

وفجأة حن إلى المرأة .. وتأوه .. واتجه إلى الداخل حيث أدار قرص التليفون .. رد عليه صوّت كأنه نائم مخمور .. لكنه كان ينادى كل شىء فيه حتى أنامل الأصابع .. قالت له :

ـ مالك يا حبيبى ؟!

ـ أنا خائف .. أنا حزين .. أريد أن أنام فرارا من الخوف والحزن.

وغمغمت بضحكة كصوت قنينة تسكب خمرا ثم سألت :

ـ وما العمل ؟!

ـ تعالى إلىّ حالا فقد صرفت الخادم وأصبحت وحدى .

ـ هل أنت بانتظارى حقيقة ؟

ضحك .

ـ طبعا ؟!

ـ وكيف ؟

صمت حتى ظنت أن الخط قد انقطع فهتفت :

ـ آلو .. آلو .. آه .. وكيف تنتظرنى ؟

ـ أنا أريد أن أتمرغ الليلة على أرض عارية .. أريد أن أتمرغ على حديقة مبلولة تماما وأشم منها رائحة الأزهار .. ويلمس جسمى الشوك والطين ..

ـ أووه .. أنت مخيف .. وكيف آتى إليك وأنت بهذا الشكل ؟

ـ عندما أراك .. آه .. لا أدرى ماذا أقول ؟

وهو حقيقة لايدرى .. ولا يستطيع أن يفسر ولا أن يعبر .. هو عندما يلتقى بها ستنسكب ذاته فى ذاتها .. ستتحول هذه السحابة الداكنة إلى ماء يتقاطر .. وتبدو السماء صافية لكن بسبب الماء الذى تساقط وداسته الأقدام .. ولم ينبت شيئا .

ودق جرس الباب .. فتح فرآها كما عهدها .. فى وجهها الأسمر الغض يظهر شيئان كأنهما علامة خاصة .. ابتسامة كبيرة كأنها من فم هزم فى لعبة ثم بدأ ينتصر .. ابتسامة تحمل المعنيين .. والعينان الواسعتان الذابلتان تنبهان بقية الوجه .. ولما رأى قامتها القصيرة الملحوظة القصر حملها بعد أن رد الباب .. ودخل وهى تدغدغ بالضحك .

• جلست على حافة الفراش بملابسها وظللت تضحك .. أما هو فكان صامتا .

وأخيرا سألته :

ـ لماذا أنت حزين ؟

ـ ... ...

ـ لا تنفخ .. فكلنا يملك قلبا .. لكن هل أنت خائف من الموت ؟ . لماذا لا ترد .. إن الموت إن تدبرته حقا نهبت الحياة .. « ضحكت » بطريقتك طبعا .. وأنت أعلم الناس بها .

وتركته وقامت إلى الشرفة حيث ألقت نظرة على القاهرة النائمة والنهر الذى لم ينم منذ شقة الله .. ولا نامت حوله الحوادث .. وعادت فجلست على الفراش وقالت بصوتها « المتدلع » وكأنها واعظة تلعن الخطايا !!

ـ حياتك في أحزانك محتاجة إلى صخب .. أنت أصم الحواس .

كانت أسنانها تلمع بريقها .. والخد مكور بانتظام ضحكة .. وكان ثوبها منحسرا إلى أعلى ما فوق الركبتين ، ومع كل هذا تحس أنك أمام طفلة وامرأة هلوك فى وقت واحد .. وذلك ما كان يعجبه فيها .. قالت

ـ عندى اقتراح سيريحك يا روحى ..

ـ تتكلمين جادة ؟

ـ سأتحول معك إلى « راهب تاييس » .. سأعكس الآية .. سأبذل لك النصيحة .. ثم أسقط لك « ها .. ها » تعال إلى الشرفة .

ـ لا ..

ـ طفل .. لكن .. حسن .. سأفعل معك ما يفعله المعالجون

النفسيون .. تعال واسترح هنا وأغمض عينيك وانس أن معك أحدا وتكلم بمخاوفك كلها .. لا تخف من مخاوفك وقابلها بشجاعة مرة واحدة .

ـ هذا يحتاج إلي جهد صامت بصوت صارخ .

ـ يالك من غشاش .. أنت خائف لأنك غشاش .. سأسترخى عريانة إلى جانبك وأستمع لما تقول .. وربما بحت بمخاوفى أنا الأخرى .. لماذا لا يصب كل منا فى الآخر ، كل شيء حتى همومه ؟!

ـ وما الفائدة ؟

ـ ها ها .. هم غيرك مهما ثقل أخف من همك مهما خف فلنجرب الآن !

جلس إلى جانبها وأخذها تحت جناحه .. فاحت منها رائحة يعرفها .. شمها فى كل الفصول .. لكنها الليلة رائحة ذات أجنحة .. وقبلها .. فأمرته أن يخرج من الغرفة ثم يعود عندما تناديه .

ولما عاد وجدها قد جهزت له شيئا جديدا .. وجدها عارية .. لكنها ملتفة فى ثوب من الحرير لم يفصّل بعد .. كان قد أهداه إليها .. فى لون العناب وفى لون شفتها السفلى المليئة والغنية عن الروج .. ورأى العينين اللتين نهبتا مساحة الوجه قد استرخيتا .. بأول كلمة قالتها حواء .

أطفأ النور الخافت فى الحجرة .. وأغلق زجاج الشرفة .. ورفع عنها الثوب الحريرى الخام وشعر كأنه يعرى طفلة لا خبرة لها بشيء،



كيف تقبله .. لكنه ما لبث أن استرخى على الفراش وأغمض عينيه وصار يتكلم بعد أن همست له وهى عارية : انس وجودى .. وكلم نفسك .

أحس أنه يريد أن يبكى .. فقال لها : كأنى محتاج إلى البكاء .

آه .. دمعتان تسقطان على خدى .. أنا محبوس .. أنا أشبه بمن يسير وحده فى الغابة أغنى .. لكنى أغنى الملذة والضياع .. أحس أننى نغمة ليس لها امتداد .. لا تزيد على نغمة دقات منبة صدىء « تك .. تك .. تك » .. وأحيانا أشعر بأنى قطعة من العجين لم تحول لشكل .. لا أنا قرص ولا أنا كعك ولا أنا مستطيل .. وأبى كان يخاف على منذ صغرى .. كثيرا ما لقننى ما يخيفنى ..

أنت مغمضة العينين الآن .. أنا عار تماما .. تعريت من ملابسى عسى أن أعرى « نفسى » .. كان أبى يقول لى احذر أن يخدعك أحد فيأخذك إلى مكان بعيد .. عند ئذ لن تعود .. أو أن تخطف فى سيارة .. أو أن تأكل من يد تجهلها .. فأنا لى أعداء لا يتورعون عن قتلك .

لقد علق فى رقبتى « تميمة » اسمها « الموت » .. وقد رأيت حادثة موت دبرها أبى ليبيع سلاحا .. كان القطار قائما من محطة دمنهور نحو الشمال فى ليلة عيد .. زحام زحام زحام .. كل الناس يتحركون كأنى أراهم الآن وكانت المحطة مليئة بعدد مرعب .. وصفر القطار للقيام .. واندفع رجل يركب .. كان هناك من يسدون عليه الطريق عمدا .. لكنه تعلق بالسلم .. كان بجانبه رجل آخر تعلق

بالسلم وكلا الرجلين لا يكادان يستطيعان الحركة .. وزادت سرعة القطار .. والصفير .. والهياج .. وفجأة رأينا أحد الرجلين يسقط على الأرض وقد واصل القطار سيره .

لكنه توقف بعد مدة تزاحم الناس فى داخل القطار وخارجه .. ناس من كل مكان .. وتبينوا أن الرجل قد مات .. كان فى رأسه جرح والدم ينزف من أذنه وأنفه وفمه .

لكن حقيقة القتل كما عرفت بعد أن الذين حاصروه ساعة الركوب .. فعلوا ذلك حتى تطلق عليه رصاصة مسدس صامت دخلت فى جنبه فهوى ..

وغطى الهرج والمرج على الحادث ، وتشابكت أسرتان من شمال البحيرة بسبب ذلك .. هرب أبى السلاح لهما .. وكان هو الذى دبر الحادث بأفكاره للقاتل .. وهو غريب عن الأسرتين .

كان فى يدى ساعتها « بلونة » منفوخة فانفجرت .. فوثبت فوق الرصيف وكذلك وثب ناس غيرى .. جعلنى هذا أخاف الموت .. لم أعد أتصور أنه من فعل الله وحده .. وكان أبى يشنق كلاب الحراسة الضارية حين يصيبها السعار فى أشجار الحديقة تحت نافذتى .. وفى الردهة الكبيرة أمام حجرة نومى كانت تحفة رائعة .. زهرية من النحاس على شكل رصاصة كبيرة جدا .. وفيها أزهار صناعية قانية الحمرة .

هل تسمعين يا كوثر ؟ .. وفى آخر المطاف مات زوج أختى فى الحرب ، جعلت تولول فى سرها :« الآباء يأكلون الحصرم والأبناء

يضرسون » .. ماذا لو كان أبى بائع كتب .. أو كان تاجر ألبان .. أو كان حتى واعظا كذابا ؟ كان هذا أحسن فى نظرى .. أو ليت أمى كانت « داية » .. كم كنت أحب أن أرى أحدا يرش حديقة الوجود بالماء حولى .. لذلك فأنى حبيس .. كوثر ..

ردت بصوت وان :

ـ ايى ..

ـ يا خبر أسود .. هل تخدعيننى ؟ ماذا قلت ؟ أنت نائمة ـ ماذا قلت ؟ أنت « عبيط » .. يا عبيط لقد نمت أنت منذ استقر ظهرك على الفراش .. وجعلت أراقبك حتى نمت أنا كذلك .

ـ أنت تخدعيننى .. هل ذهب كل ما قلته فى الهواء ؟ لم تسمعينى ؟

ـ ليس خسارة .. سمعته أنا أو لم أسمعه فقد تخلصت منه .. إفرازات الخوف .. اذهب وحارب .. وإلا تعال .. إلى المهرة السمراء .. إلىّ لأحرقك بنارى .. و

ومدت ذراعيها ففاحتواها كأنها دمية .

ـ ٦ ـ

وقفت العربة الخضراء الصغيرة أمام فيلا فتحى سالم .. والوقت خريف والليل هادىء .. لكن الجبهة المصرية لم تكن هادئة .. أصبحت حديث الناس جميعا فى كل مكان .. فلم يعد الراكعون راكعين بل وقف نيهم الإنسان اليوم منتصبا على قدميه .

كانت منى المنشاوى تفكر فى هذا وهى فى عربتها فى الطريق : « هل يتصور الناس أن فى داخل كل منا شخصا لا نحس بوجوده .. أما الهيكل البادى للناس فليس إلا غطاء لمن فى الداخل .. ونحن نمشى راكعين حين يكون من بداخلنا راكعا .. راكعين مهما حاولنا الانتصاب .. ولعل الشعراء كانوا يريدون هذا المعنى حين قالوا : « لقد حنى الهم ظهره » .. وحين وقف محرك العربة أمام المدخل الحجرى الصغير المؤدى إلى الفيلا والذى يسوده فى الغالب ظلام ويغطيه ماء مرشوش .. كانت منى المنشاوى تحاول أن تتصور ماذا سيكون عليه اللقاء الأول .. هنا ..

واجتازت عتبة الفيلا فرأت فى ساحتها غير المنتظمة نورا ضئيلا تحت الأشجار .. وإلى اليسار جناح صغير وحجرة استقبال مستقلة فى مواجهة الداخل .. أما الأشجار فتبدو وكأن عمرها أطول من عمر المبانى .. تعرب عن خصوبة أرض أصيلة .. ويعبث الهواء بأحد فروع

منها فيطبل به على زجاج نافذة مغلقة .

كان فتحى سالم جالسا إلى اتجاهها على كنبة « استانبولى » إلى يمين الداخل .. كان فى استقبال السيدة منى خادم أشعث ذو لحية مستديرة مدببة عند الذقن .. وخلفه امرأة وقفت على بعد غير قليل .. تبدو أنها زوجته .. حملقت فى السيدة الداخلة وكأنها ترى فى مرآة الزمن شيئا لا يمثل الحاضر فحسب بل يكاد يمثل المستقبل أيضا .. فكأنها اطلعت على الغيب حين رأت منى المنشاوى فى ظلال الحديقة .

وأعلن الخادم المسن قدوم السيدة فنهض فتحى واقفا وقد مد يديه الاثنتين كأنما ليصافحها بهما معا .. وبسرعة وكأنما فطن لنفسه ــ خنض يده اليسرى وبدأ يرحب بالكلمات .. وسلم على منى التى جلست إلى جواره بينها وبينه مسندان صغيران من تلك التى تكون عادة على هذه الأرائك .. وانصرفت خارجة من الحجرة تلميذة فى عمر الزهور تحمل كتبا فرنسية ، وألقى إليها الأستاذ باسما أوامر تفيد بأن تعمل الواجب الذى أخذته .. وكانت التلميذة فى هيئة تدل على الفقر والمدنية لو أن جمالها غنى جدا .. ومضت تخب بشبشبها وسط الحديقة إلى أن وصلت إلى المدخل المرصوف بالأحجار المرشوش بالماء والظلام .

ولم يدع فتحى السيدة منى تسأل نفسها عن شىء .. فشرح لها أنها ابنة خادم المسجد القريب .. « وضحك واستطرد » وقد ربطت أواصر الصلاة بينه وبين ذلك الرجل الذى يرعانا والذى ربانا والذى قابلك عند الباب « عم خير .» .

وخبط فتحى بيده على مسند الكنبة فأحس أن هناك ثقلا مقابلا كان هو فى الواقع كف منى المنشاوى .. فاستمرأ فى صمت هذا الإحساس الذى نقله الجماد .. ورفع يده ووضعها ثانيا حيث كانت ويد منى على بعد قدم واحدة على الأقل لكنه أحس بلينها ودفئها فاستطرد يقول باسما :

ـ هل تعرفين أجمل ما عمله الله ؟! . « وصمتا واستطرد فى ألم يشبه الحنين » : أجمل ما عمله الله يا سيدة منى أنه وزع العقول على الناس بطريقة غير التى وزع بها الأرزاق فجعل للفقير شيئا يعتز به . شعرت منى بأنها ضمن « ملف القضية » ولذ لها أن يستطرد على حين قال هو بنبرة لزمته وهى تأكيد العبارة أخيرا بالضغط على آخر كلماتها:

ـ هل أنت معى ؟

ـ معك دائما !!

قالتها برقة مسحت على القلب .. فاستطرد :

ـ هذه البنية يقولون لى إنها جميلة .

ـ صحيح جميلة .

ـ وأنا أحس فى صوتها جمالا .. صوتها ملهوف كأنه يستغيث وهو مطمئن .. تناقض !! وكأنها تريد دائما أن تدرك شيئا .. أحس أنها تجرى وراء شىء تريده ولا تستطيع أن تصفه لكنها ـ وهى الصغيرة ـ تشعر أنه « نور » .. « وهمس بالضحك » ومن العيب أن أصف لك النور .

وغير لهجته كما هى العادة .. دعينا من هذا ، قولى لى : كيف حالك ؟! نحن بانتظار الجماعة .. فهمى سكر ... وزهير أبو على .. وربما بعض الأصدقاء الآخرين لكن .. بماذا نبدأ ؟ . عندنا كلام كثير .

فتنهدت فكأنما فاحت من أنفاسها رائحة الفتنة .. وكأنما أخذ فتحى يجرى على الأرض المبلولة على المصارف ويرى ألوان الطيف وعرس الطبيعة وظهر المقابر المغسولة .. ويسمع ترانيم الفلاحين .

قالت منى : على فكرة لقد قادنى شوقى إلى أن أعمل شيئا ما .. فقبل أن آتى إلى هنا ذهبت إلى مصر الجديدة .. ووقفت أمام فيلا الدكتور أمين « وتنهد فتحى وتأوه » .. كانت المدرسة وراء ظهرى فى الظلام الوقور ورائحة شجرة ياسمين ظمآنة .. ظمآنة جدا يا سيدى تملأ ظلام الحوش .. خيل إلىّ أن أخطو إلى الداخل وأنادى ولو أن كل الأنوار مطفأة .. والبلكونات المعهودة فى حجرة المكتبة كلها موصدة وكأنها منذ أعوام .. «- وسمع فتحى شهقتها لكن صوتها كان شجاعا وإن حمل رنة الأسى » .

أليس غريبا أن تتوافق هذه الحوادث ، حين غبت عنكم فى « الأردن » وقابلت بعض أصدقائى للبحث عن « صبرى » ؟ رأيت فى المستشفيات والمصحات ناسا جعلونى أكف عن البحث .. ناسا من الذين فقدوا ذاكرتهم أو أصابتهم عضة الحرب .. وعدت بفكرة مقنعة لا تقبل الجدل عندى .. هى أن الموت فى الحروب أقل ما يجب أن يثير أحزاننا .. فإذا كانت الحرب هى سوق الموت فكيف نستنكر أن تروج

فيها السلعة الأصلية ؟ عدت من هناك فقبلت ابنى « عمرو » مائة قبلة وكأننى عدت به من أرض الضياع .. وكأننى لست أمه .. بل جدته لأبيه أقبل الذى لا يزال صغيرا « صبرى عبده » .

ـ إلى هذه الدرجة تمثلت الفكرة ؟

ودخل بالقهوة ذلك الخادم المسن .. دخل يتنحنح .. فسأله فتحى : ولماذا أنت ؟ لماذا لم تحملها زوجتك ؟

فابتسم وهمس : لتحصل لى البركة .

وابتسم فتحى والسيدة « منى » على أساها واستطردت :

ـ من حسن الظروف أن أجلس معك فى هذه الفترة ونحن وحدنا .

وألقت بسمعها قليلا إلى الغصن الذى يقرع النافذة بقلق ثم إلى حفيف الهواء فى ذوائب الشجر فى الأعالى ثم إلى صوت طفل فى الداخل لكنها قالت :

ـ أنا أومن بشىء يا سيد فتحى .. وأنا أومن بأن حياة تخلو من المشقة حياة خلت بكل تأكيد من الدعائم الخشبية التى تحمل أشجار العنب .. فكأن كل منا فى هذه الحياة « كرمة » عليها أن تقيم لنفسها دعائمها وإلا زحفت على الأرض كالكسيح وأصبحت بعد قليل لا ورق ولا عناقيد .

ـ المحنة علمتك كثيرا يا سيدتى !!

ـ أووه .. ليتك تدرى ما لاقيت .. إذ كانت الصلاة الحقيقية هى كل ما هو خارج عن الكلمات بل هو كل ما هو فوقها ، بل شيئا ربما

يكون خفقة نفس ـ إذا كان هذا كذلك فإن الحياة الحقيقية هى القطرات القليلة الصافية المثلوجة التى نستقطرها من عكازة الوجود كله .

ـ آآه .. وكيف رأيت مكتبة الدكتور أمين بعد موته ؟.

قالت بأسى :

ـ رأيت كل شىء ميتا .. ومن العجيب أن يقع موته وأنا بعيدة عن مصر .. عدت خالية اليدين وعلمت بوفاة الدكتور أمين .. لكننا قررنا أن يكون لقاء الجماعة عندك كما تعلم .

ـ لقد مات وهو ممسك بك ..

ـ ممسك بى ؟!

ـ ومات وفى يده تذكارك .. العدسة البلورية التى يبحث بها عن الحقائق فى خفايا التاريخ .. دخلت عليه زوجته فحسبته نائما فلما حركته عرفت أن أشد الأشياء ضجيجا وارتفاع صوت هو أيضا أشد الأشياء خمودا وسكوتا حين يدركه قدره .

وسكت وضم شفتيه كأنه يكظم شيئا وأخذ يطرق بكفه على الوسادة فى الوقت الذى أخذ الغصن فيه ينقر زجاج النافذة نقرات رعناء .. ثم استطرد :

ـ وهناك شىء أغرب يا مني .. هو أننا كلينا أنت وأنا قد تعلقت نفسه بشخص مجهول المصير .

وجمع كفيه وضمهما وتعاشقت أصابع يديه فى هذا المنظر بما يوحى بالألم .. أما هى فقد فتحت فمها وبدت أسنانها المنضودة بأناقة وقد



لمعت بريقها .. ولم تدر لم تحسست خدها ثم عقدة أنفها كأن شيئا بداخلها يقول : « إن الجمال والحزن والفرح .. وإن كل شىء لا يكون موجودا إلا إذا رآه إنسان .. خصوصا إذا كان هذا الإنسان مهما » .. وجاء صوتها وكأنه من بعيد :

ـ أنت .. أنت .. متعلق بشخص مجهول المصير ؟!

لم يرد .. ساد صمت آنسته فروع الشجر فى الخارج بالحفيف .. وصمت ذلك الطفل فى الداخل .. كانت منى حائرة .. نظرت إلى وجهه الخمرى والذى يحمل شيئا من الوسامة .. ثم إلى الخليجين اللذين يحفان جانبى رأسه حيث أخذ الشعر يتراجع .. وبدأ فتحى سالم يعود إلى حالته الأولى ببساطة فهو ـ على الأقل ـ أحس الآن وهو وحيد أنه مع امرأة تتدس المصاعب .. وتعتبر كل فرد « كرمة » عليها أن تقيم دعائمها بنفسها .. وعند ذلك ضحك .. ضحكا خفيفا .. وعادت كفه تطرق المسند بينهما وقال هاتفا بها كأنما يوقظها من غفوة :

ـ ماذا جرى ؟! أنت على الأقل تملكين شيئا ما .. أما أنا فلا .. ثم .. ماذا بعد ذلك ؟ .. لست أعلم .. هل الذى تملكينه بالنسبة لمن فقدت أنا خير من الذى أملكه بالنسبة لمن فقدت أنت ؟ هاهاها .. اسمعى يا سيدة منى .. اسمعى منى وقد أقول لك شيئا تجهلينه (وبدأ يضغط الكلمات) قائلا :

ـ الظلام .. والموت .. والنسيان .. (ثم بدا وكأنه يوشوش) هذه الثلاثة العوالم كأنها قطار موحد الدرجات .. لا تحزنى !! فإن الناس

جميعا يتساوون فيه .

ــ هل تستطيع أن تواصل هذا الحديث عندما يأتى الضيوف ؟!

ــ لا .. لا أظن ..

ــ ليتهم لا يأتون .. لكن مادام الأمر كذلك فمتى أعرفك ؟!

قال مازحا :

ــ دأنذا أمامك .. لقد تمت المعرفة ..

وفى هذه اللحظة انبعث ضجيج فى الحديقة .. بعد أن كف محرك سيارة فى الخارج عن الحركة .. وكان الضجيج آتيا من فهمى سكر الذى التقى بزهير عند الباب .

وكان فهمى سكر يمازح الخادم المسن قائلا له بتوال سريع : « كيف حالك يا عم خير ؟ أوحشتنا يا عم خير .. متى ستحج يا عم خير ؟ متى ستلقى الله يا عم خير ؟ » .. كل هذا وفتحى مستغرق فى الضحك فى الداخل .

والتقى نظر الشابين بمنى وهى جالسة إلى جوار فتحى سالم يفصل بينهما المسندان الصغيران .. فهتف فهمى من قلبه لكن بصورة يغلفها المزاح :

ــ منى ؟!! . « كل شىء إذن حضر » .. كيف أخبارك يا سيدتى ؟!

وجلس الشابان .. وبدا فهمى سكر على طبيعته تماما .. رأته منى هنا وكأنما رأته للمرة الأولى .. شابا مرحا منهكا مكتئبا شيئا ما خفيف

الظل .. جلس هو وزهير على الكنبة المقابلة وخلفهما الشباك .. وفى التو خلع فهمى حذاءيه وجلس شبه مضطجع وهو متعب .. وفاحت رائحة قدميه .. وبدا الحذاء مرهقا مظلوما مقدمته مقوسة إلى أعلى وأخذت كل فردة ناحية كأنما هربا من الاستعمال .. ولم يلبث زهير أن حذا حذوه فقد خلع حذاءه الأنيق ورمى به أيضا واختلطت المتعب « السريح » باللامع المرتاح فأضحك الجميع .

ورمى فهمى ذراعيه إلى جواره وتأود حتى شبع وحتى سأله فتحى سالم

ـ هل كنت مع زهير ؟

ـ لا .. تقابلنا عند الباب .. وأنت تعرف أين كنت .. واسمعى معه يا سيدة منى .. كنت هنا فى السيدة زينب من أول النهار .. أضرب فى الشوارع كما هى عادتى .. أتفقد الرعية !!

وضحك متعبا .

قال فتحى سالم مداعبا :

ـ ولعلك وجدتها بخير والحمد لله .. العالم قد استحدث فى هذه الأيام أشياء كثيرة ومخيفة لتفقد الرعية أما أنت فلا تزال تتبع هذه العادة البالية .. كيف وجدت شعبك ؟

ظل جالسا على الكنبة نصف مضطجع .. مسبل العينين تماما .. وزهير ينظر إليه فى شرود .. وخصلة من شعر فهمى الهندى على جبينه .. ثم رد كأنه يحلم :

ـ فى الصباح لم تعجبنى أحوال الرعية فى المدرسة .. دخلت فى معركة من أجل الفضائل .. كان فى زيارتنا مدير المنطقة .. رجل اسمه فلان الفلانى .. لكنه جاهل وجبار .. عنكبوت على هيئة دب وليس هناك حشرة تستطيع دخول بيته عليه .. لا تقاطعنى يا من تكلمت فأنا نى شبه غيبوبة .. آه يا رجلىّ يا أعظم الأعضاء عبقرية .. جاءتنا إشارة منذ أيام بأن سيادة المدير سيشرّف . نادتنى الناظرة مع كل المدرسين والمدرسات واسترشدت ونبهت وحذرت .. واليوم فوجئنا بأمر شخصى منها وتف « طاقم » من الحسان فى زى موحد بين أصيص من النخيل المؤجر والورود المشتراة ، وعزفت الموسيقى من فرقة المدرسة عند دخول المدير .. وطبعا وجد كل شىء على ما يرام خصوصا المنضدة الكبرى المغطاة بمفارش بيضاء وعليها الزهور والفطائر والشاى .

وفى أثناء هذا فوجئنا بنكبة .. فوجئنا بأن الناظرة التى كانت تسبه وتلعنه مع كل صلاة تخرج ورقة ، ووقفت لتخطب محيية المدير .

ونثر فهمى خصلات شعره على جبينه قائلا : لقد ابيض شعرى هذا لهول المفاجأة .. لا تقاطعينى يا منى فالناظرة سيدة عظيمة يهمك بصفتك صحفية ومثقفة أن تعرفى مزاياها .. وأخذ يعد على أصابعه وهو مغمض العينين :

أولا : تنطق القاف كافا (وهى الراء الباريسية فى هذا الوقت الراء التى تنطق غينا) .

ثانيا : تصرخ فى الخطابة كأنها تنوح .

ثالثا : كانت منذ أيام تلعن جدود المحتفى به حتى أقرب جد لآدم عليه السلام ، وأخذت السيدة الناظرة تعدد فضائله حتى قالت :

ـ فى الوكت (الوقت) الذى ندك (ندق) فيه ناكوس (ناقوس) الحصة الأولى كل يوم ، ونبدأ العمل تكون أنت قد دككت ناكوس (دققت ناقوس) العمل ، ونحن لا نزال راكدين (راقدين) وقد كلت (قلت) ما استحك (ما استحق) أن يعيش من ..

وهنا وقعت المصيبة .. كنت أشرب فنجالا من الشاى فشرقت به وأنا أغالب الضحك فانقلب على المفرش الأبيض ، وتطعت الناظرة الخطبة حتى خرجت من حجرة الرسم التى كان المدير واقفا فيها على مقربة من لوحة رسمها تلميذ ذكى تمثل كفا تمسك قلما وكتب تحتها « علم بالقلم » .. ولم أر كيف انفض الحفل .. لكن الناظرة استدعتنى فى الحال وسألتنى صارخة : كيف يحدث هذا منك فى حضرة رجل عظيم ؟

قلت لها : عظيم ؟! فردت مهددة : هل تطعن فى عظمة مدير المنطقة أيها الهلفوت ؟

فقلت هادئا ذاهلا : لا .. بل شرقت وكان من الممكن أن أعطس أو أسعل أو أتمخط أو أى شىء آخر ، فماذا كان إذن سيجرى ؟

ـ أنت غير مهذب .

ـ أنت منافقة . ألبست النفاق (الملابس الموحدة) وألفت له الأناشيد بعد الشتائم .

شدت شعرها وصرخت : حولوه للتحقيق .. حولوه للتحقيق . ومشيت من أمامها لكنى عدت وقلت لها : من فضلك لا تظلمينى .. دعينا من التحقيق .. فرد من حولها يهدىء الضجة سائلا :

ـ إذن ما تريد يا سيد سكر ؟

ـ للعدل والإنصاف يجب تحويلى إلى (التحكيك) !!

وانصرفت لا ألوى على شىء .. ثم صرت بعدها أضرب فى أنحاء القاهرة أتنقد الرعية وأنتظر مصيرى .

قال زهير أبو على :

ـ هل زرت قهوة الحاج ربيع ؟

قال فهمى سكر وهو يلم ساقيه ويفتح عينيه :

ـ عندما أكون محزونا أذهب إلى قهوة ربيع وهناك ألقاه ..

سألت « منى » من هو هذا ؟

فقال : المعلم ربيع نفسه لو رأيته يا منى لعملت عنه على الأقل ريبورتاج رائع .

وعندئذ دخل « عم خير » بالقهوة .. فصرخ فهمى : ما هذا يا عم خير ؟ هذه القهوة لزهير لأنه لا ينام من الخوف أما أنا فأريد أكلا .. هل تعرف معنى الأكل يا عم خير ؟ شىء يمضغ بالأسنان .

فضحك الرجل ومشى وهو يكرر الصلاة على النبى وفتحى سالم يؤيد طلب فتحى حتى عاد إليه بصينية عليها جبن وحلاوة وزبادى .

كان فهمى يتكلم وهو يأكل كرجل ليس عنده من الوقت شىء :

ـ ابن الحاج ربيع فى الحرب وكل ليلة يقص الحاج ربيع علينا ـ ونحن جماعة نتتحى ركنا ـ يقص علينا عن ابنه حكاية طريفة .

ـ ماذا قال لك الليلة ؟

ـ هذا ليس مهما بالدرجة الأولى .. المهم بالدرجة الأولى أن الحاج ربيع انتهج خطة كان من المؤكد يجهل نتائجها .. فهو يحب دائما أن يظهر فى صورة بطل .. ويعرف كثيرا من حكايات الشطار واللصوص والفتوات .. عيناه المتورمتان الأهداب والضعيفتان أيضا لست أدرى من أين تنبعث منهما القوة .وتقع قهوته في جبل الكشمى .. عند مسجد « العمرى » .. وأجمل ما فى هذا الموقع أن زبائنه يكفون عن السباب أو العراك عندما يرون المؤذن أمام عيونهم .. وأنا أعتقد أن قهوة هذا الرجل أحسن مكان لتفقد الرعية .. عم ربيع يمثل الوالى فيها وأنا أمثل الخليفة .

سأل فتحى سالم :

ـ ماذا فى الرعية هناك ؟

كان فهمى قد فرغ من الطعام وحمد الله ومسح يديه ، ثم خطف فنجال القهوة من أمام زهير قائلا له : دع لنا هذه الصغائر أيها « الرأسمالى » .

وأجاب فتحى وهو يرشف القهوة ، أجاب وقد عادت إليه حصافته:

ـ الرعية هى الرعية .. هى الغالبية العظمى من الشعب التى تأخذ قوتها الفكرى من الراديو وتبادل الكلام .. ولذلك فأنا أحاول أن أربى

الرعية فى هذه القهوة تربية ترضينى .. هاهاها والحاج ربيع يعيننى على ذلك .. ومعظم الرواد ــ وهم غير كثير ــ يعرفوننى ويعرفون مدى حب الحاج ربيع لشخصى الضعيف .. نعم .. لذلك عندما تكون هناك مشكلة عامة نإنهم عادة ينتظرون حضور الأستاذ فهمى سكر .. وحين أدخل يسارع نحوى الحاج ربيع ويقول لى : يقولون كذا فما رأيك ؟

أما مشكلة الليلة فقد كانت غريبة ، فقد تراهن جماعة على أن الحرب ستنتهى فى تاريخ معين ، وتراهن جماعة على ضعف المدة .. حتى حضرت .. كان الحاج ربيع يقول أمامى : إنهم يتكلمون عن «عمر الحرب » .. طيب .. هات لنا يا أستاذ فهمى عسكرى مطانى يحدثنا عن « عمر » أى حريق يراه .. كله إلا هذا وأنا أقول لهم يا ناس .. المهم أن نكون رجالا .. وأقسم الحاج ربيع أنه شتم ابنه فى رسالة بعث بها حين كرر السؤال عن زوجته فقط .

قال الحاج ربيع : بعثت إليه أقول إن كانت رجولتك في هذا فقط فاهرب وتعال .. وإن كنت رجلا يعرف ما يعمله الرجال فى النور وما يعمله الرجال فى الظلام فالصبر طيب .

وضحكوا ثم قال فتحى سالم :

ــ الرعية يا سيد فهمى تريد راعيا .. ليس من الضرورى أن يكون على المستوى الأعلى جدا لكن عليه أن يقوم بما يقوم به رجل الإسعاف فى الحوادث .

ودخل ضيوف بدا أنهم قادمون من الريف توا وأنهم أقارب فتحى

سالم .. كانوا يحملون أثقالا من المئونة .. دخلوا تفوح منهم رائحة الخبز والبرتقال .. فى الوقت الذى كانوا فيه ينقلون هذا إلى الداخل والطفل يجرى حولهم متضاحكا ، أخذت الجماعة فى الاستعداد للخروج لأن الوقت لم يعد ملائما .. لكن ضحكا ارتفع فجأة حين رأى زهير أبو على نفسه مضطرا لأن يلبس حذاء فهمى سكر بعد أن غافله ولبس هو حذاءه . ولما دخل الضيوف غرفة الاستقبال لم يكن من المستطاع عمل شيء ما وفى المدخل المبلط بالأحجار ضحكت « منى » وحملت فهمى معها فى العربة وزهير واقف يراقب الليل والمصباحين الأحمرين في خلف السيارة الخضراء ، ويفكر فى القدر الضارى الذى سيصيب حذاءه اللامع ثم تبسم .

ـ ٧ ـ

كان بيت فتحى سالم يمثل نموذجا لبيت طيب .. فهو رجل أعزب لم يتزوج حتى الآن .. يخطو إلى الخمسين وفكرته عن الزواج كانت شجرة مرة لها عدة جذور .. أول جذورها أنه يرى الأطفال فى بشرية صغيرة لكنها سماوية مثل قوس قزح ـ صديقه الخالد ، الذى يناغيه إذا ما شاء الله أن يبعث لقلبه شيئا من المسرة .. أما الجذر الثانى فهو قصة حب.

ولندع مغامرات الصبا الأولى حيث كان قادرا على أن يفعل ما يشاء مع قرويات ذوات مطامع جنسية أو غير جنسية ، لكن فتحى

عرف الحب الحقيقى فى بلد غير مصر .. كان ذلك فى إحدى مدن جنوب فرنسا .. حين حاول أبوه الذى كان يود أن يهبه شيئين من عنده .. عينى الأب ذاته .. ثم ما يشاء لابنه من تعليم وقد كان فى وفرة من الرزق .. وبعد أن فقد هذا الرجل الريفى التقليدى زوجته الأولى ، أى أم هذا الشاب كان حزنه عليها مزدوجا .. حزن رجل يحب زوجة جميلة طيبة نتية تخلط له ماء الورد بالماء الدافىء الذى تصبه على يديه ووجهه ورجليه للوضوء .. ثم حزنه على أم لذلك الصبى الصغير فتحى .. وهو محتاج إليها .. ومن الممكن أن نقول فى حدود الإمكان : إن الأب على مشاغله كان شبه أم لهذا الصغير .. فى الليل كان يأخذه فى أحضانه حتى ينام .. وكان الصغير ثقيل النوم فبعد أن يستغرق ينقل إلى فراشه المستقل لأن للأب زوجة بعد الأولى .. وكان الصغير يتحدث إلى أبيه بأشياء غريبة .. كانت خيطا من عالم النور وعالم الظلام .. أشبه بغبشة المساء .. آمال واسعة لا يرى لها أفق .. وعدم رؤية الأفق مخيف وإن أنار الخيال .

وجاء إلى القاهرة ودرس فى أحد معاهدها الدينية وكان شديد الذكاء .. نعم .. لكن كان هناك نجم أدبى لامع يشغل الناس فى ذلك الوقت .. وكان موضع حب وذم فى وقت واحد .. وحينما يقع الذم لشىء غير مألوف يظهر له حواريون حقيقيون ربما لا يكونون ساطعين لكنهم من الكثرة لا حصر لهم .

غير أن المهم فى الأمر أن اليسر ساعد القدرة وأن الحب الأبوى

ساعد المغامرة .. ليلة قال فتحى سالم لأبيه بعد أن نال الشهادة الثانوية من الأزهر ودرس قدرا من اللغة الفرنسية .. قال لأبيه بشجاعة خافها الأب .. مع أنها كانت أشبه بالابتهال ودعاء المظلوم :

ـ إذا كان ابنك قد فقد أعز ما يملك من جوارحه ، قد أتحت أنا دون علم من أحد للشاب الذى رافقنى فرصة أن يتعلم كأن هذا صلاة على ما فقدت .. فماذا يا أبى لو وافقت على أن ألتحق بإحدى جامعات الجنوب فى فرنسا لأدرس الفلسفة ؟!

وأخذ الأب .. ثم رد حائرا وقد تذكر زوجته التى كانت تخلط له ماء الوضوء بماء الورد وتذكر أيضا نبوغ ولده وقال :

ـ لكن الفلسفة يا بنى لا تعرف الله ؟!

قال الابن فى خضوع :

ـ بل هى التى عرفتنا الله .. ومع ذلك فالحبل فى يدك فإن بلغك عنى مالا تحب فلا تبعث إلى بمال ، وعندئذ سأعود مضطرا .

وذهب ثم رجع .. لكن كيف ؟! هذا ما تود السيدة منى المنشاوى أن تعرف تفاصيله بعد أن عرفت من طريق فهمى سكر أن فتحى سالم ينام فى حجرة واحدة لم تكن له فيها زوجة فى الوقت الذى يتمتع فيه « عم خير » بدفء أحضان امرأة ومعها طفل هو آخر العنقود يدفع له فتحى نفقات التعليم .

وتأتيه الآن مما ورثه فى الريف خيرات يبذلها لكل الناس وربما قال فى نفسه : « إن النور الحقيقى لن ينبعث إلا من الفرحة التى نمنحها

لقلوب الأطهار .. وربما لقلوب الأشرار أيضا .. فالشرير يحس أن المجتمع يفتل الحبل لعنقه ويتربص له .. فإذا ما منحته الفرحة وأحس أنك مخلص فى المنح عمرت جزءا من الأرض الخراب ولو كان صغيرا .. جزءا من قلبه » .

* * *

وفى الوقت الذى كان نهمى سكر غارقا فيه فى مشاكل التحقيق، والذى كان زهير أبو على فيه غارقا فى الخوف وفى جذب الجبل مرة أخرى لأن رجلا أكثر مالا وشبابا وشخصية جعل « كوثر » مشغولة عنه .

فى هذا الوقت كانت منى المنشاوى قد تلقت رسالة من مقاتل على الجبهة المصرية ، وكانت الرسالة تحمل معنيين ظاهرين كبياض العين وسوادها ، ولكن لسنا ندرى من أيهما تكون العين .. والذى لا شك فيه أن العين من كليهما .

كانت أشبه برسالة حب من فتى صغير السن مجهول الاسم .. ولكنه أشبه برسالة فيلسوف جاوز الأربعين على الأقل إن لم يكن يقف الآن على قمة الخمسين .. ولم يكن فيها إمضاء لا حرف ولا اسم .. كلام فقط .. لكنه يدل على وزن نفسه .

ولم تدر منى لم شغلت بهذه الرسالة والتى قال لها كاتبها فى نهايتها : « ليس من حقك نشرها ولا التحدث عنها .. اجعليها مثل شربة ماء مثلوجة قدمها إليك ظامىء على أرض النار .. دعيها

تتخلل خلاياك ومن المهم لنا نحن الذين كتب علينا أن نحمل السلاح لأكثر من معنى كبير أن نكلم ناسا نراهم مهمين لكن غير رسميين .. مثل ما نرى فى صفحة الجدول وجوهنا وقد نمت فيها اللحى أكثر من المألوف لأن الوقت ليس وقت الزينة .. وأنا أقرأ ما تكتبين ولست أزعم أنك أعظم كاتبة لكن هناك كلمات قادرة على أن تسكر مشاعرنا ونحن فى أضخم الحوادث .. وأنت لك مثل هذه الكلمات .. ورأيت صورة لك فأحسست بعد ما قرأت لك أننى عرفت موقع مدينة عزيزة قرأت عنها رواية خالدة ــ فعرفت موقعها من الدنيا .. فأنت كذلك .. اسمحى لى أن أكتب إليك بين حين وحين لأنى أحس أننى حين أترك مدفعى وألجأ إلى المخبأ لأكتب لك على هذا الورق ــ أحس أننى فلاح غسل عنه طين الحقل فى جدول صاف وتمدد إلى جوار زوجة يحبها وتفوح منها رائحة الصابون .. وربما سألتنى : لماذا الفلاح ؟ ويكون جوابى : لأنه هو الذى يعيش ببساطة ما يزال الفلاسفة حتى الآن يبحثون عنها .. إننا فى الحرب نعرف كيف نعرف كلمة « السلام » كما نعرف فى « العراء » كيف نعرف كلمة « السكن » .. وأنا هنا أحس أن السلام كلمة بسيطة هو مسح العرق بالمنديل أو كشطه عن الجبين ببعض الأصابع .. لكن ليس هذا عندما يسكت أزيز الحرب .. لا بل عندما يسكت أزيز الغليان فى نفس المظلوم بالرضا وفى نفس الظالم بالخنوع .

وسمعت صوتك فى الراديو شاهقا مبحوحا فأحسست أنك تكلمين



الجميع .. كنت تبعثين إلينا التحية فى العيد .. أى عيد ؟ لا أذكر .. كل ما أذكره أنكم قلتم لنا إنه عيد .. مع أن هذه الجموع التى تتحرك مثل النمل المسلح لا تفعل هذا كله إلا لشىء واحد .. كأنها تدفع الشمس بعد شروقها نحو الغرب ، ثم تعود تتجرها بعد غروبها نحو الشرق حتى تتم الدورة المكتوبة ، ويأتى اليوم الذى يصيح فيه كل الموجودين هنا وعندكم : « هذا هو العيد » .

على فكرة .. أنا متزوج .. وأحب زوجتى .. لى بنيّة حسناء وولد جميل .. كلما تذكرتهم تلت هامسا : متى تصل البشرية الحمقاء إلى تعريف غير مزيف لكلمة السلام ؟!

سلام من « يجمعون بأعمالهم حروف » هذه الكلمة العزيزة .. كما يفعل عمال « الجمع » فى المطابع .. لا هم لهم وهم يضعون حرفا أمام حرف إلا أن تنطلق الكلمة صحيحة .

أما الكثير فيخطئون إذ يشغلون بأنفسهم فيضعون بدل « سين » السلام « كافا » ، أو يضعون بدل « ميم » السلام « حاء » .

* * *

أخذت منى المنشاوى تفكر فى هذه الرسالة مثل تفكيرها فى مصير زوجها المجهول ، لكنها أحست برهافة حسها الناعم أن هذا البطل لو ظل على مراسلتها لانضم بلا إرادة وعلى بعد الشقة لهذه المجموعة الصغيرة من الأصدقاء .

وتصورت فى بعض الأحيان ــ تصور الباحثين عن إكسير الحياة ــ

أن هذا الكاتب ربما كان زوجها .. وضحكت من نفسها فهى تعرف أننا جميعا كبشر نتمنى انتسابنا إلى الشيء الفذ حتى ولو كان غير حق كما تتنازع عدة أمم « جنسية » عالم قديم عظيم .

ولا تدرى منى المنشاوى لم تاقت الليلة إلى رؤية فتحى سالم ؟ أظن أنها مخطئة .. إنها تدرى .. ترد أن تراه لتتحدث معه وحيدا .. وعبرت المدخل المبلط بالأحجار والمرشوش بالماء والظلام .. ولما دقت الجرس هرع إليها « عم خير » .. وحين رآها أعلن اسمها عاليا وقال ضاحكا : ظننت أن القادم هو الأستاذ نبهى سكر .. كان سيذكرنى بالموت .. (وهمهم) أما أنت يا سيدتى فأنت تحببينا فى الحياة .

وسمعت ترحيب « فتحى سالم » وانصرفت من عنده تلك التلميذة المعروفة وربما صبى هو أخ لها .. كان يلبس قبقابا وتبدو من جيبه المقطوع بقايا « سندوتش » .. وجلسا .. « منى » و« فتحى » كما هى العادة .. لكن « منى » حين نظرت إلى وجهه شعرت أنه ملهوف .. ليس مثل اللهفة التى يعانيها كل الناس بل لهفة خبير متمرس من الممكن أن يحول آهة الألم إلى آهة غناء .. وتبسم وخبط على المخدة التى كانت كفها على طرفها الآخر ولم يزد على أن هتف بعم خير بصوت عال .. ولما دخل الرجل وسبح ببصره الضعيف ونفسه البسيطة فى غمار الثقافة والأناقة والجمال والبساطة ونور الابتسامة وشذى العطر الخفيف ــ كان فتحى يسأله :

ــ أليس عندك تحية خاصة للسيدة منى يا عم خير ؟

قال الرجل بشبه تبتل :

ـ ابنى الصغير شىء يمكن أن يقدم ؟

ففغر الرجل والسيدة فمهما .. وما لبث فتحى أن ضحك ثم أمر بشىء ما .. ولما مشى الرجل استطرد فتحي قائلا لكن على استحياء :

ـ ماذا تفعلين للناس ؟

قالت بتدلل :

ـ أنا ؟ .. ماذا أكون ؟

وسمعته يتأوه .. ثم سكت واستطرد :

ـ كل منا يرسم خريطة للدنيا .. وبعض الناس خريطة الدنيا عندهم لا تزيد على صورة وجه .. (وفرك كفيه) أنا أذكر ذلك يا سيدة منى. وإن كنت الآن بحكم الليل والنهار والضحك والدموع قد غيرت هذه الفكرة .. وإذا كان عم خير يرى فيك دنيا لم يعشها فى شبابه حتى ولو عاشها ما ملكها فإنه حول النزعة المادية إلى قوس روحانى مضىء .. هل توافقيننى ؟!!

فأجابت : نعم .

ثم قالت : جاءتنى منذ يومين رسالة من مقاتل .

وقرأتها عليه .. ولما فرغت سكت فتحى ولم يعلق .. ثم ابتسم سائلا فى فتور يشبه المرض :

ـ ما هذا كله ؟! أنت تذكرينى باليد التى تحول الشموع المرصوصة فى حفلة ما إلى ألسنة صغيرة مضيئة تلعق الظلام بل وتزين النور نفسه

.. هاهاها .. ما هذا كله ؟

ردت بحياء :

ـ المهم أنك قلت لى سابقا إن لنا مأساة من لون واحد .. فهل ممكن أن أسمع ؟!

ـ اسمعى يا سيدتى .. نحن الآن نخطو إلى نهاية عام ٦٨ نعم .. وقد فقدت فى هذا جزءا من القلب والذكريات والعمر ..أليس كذلك ؟. أما أنا فقد أصبحت فى حلّ من الصمت إذ أننى أكره الشكوى .. ففى عام ١٩٣٧ أى قبل قيام الحرب العالمية الثانية التى أعلنوا انتهاءها ذات يوم وهم لا يدرون أنهم « حاملو ميكروب » ، فى شتاء هذا العام كنت أتعلم فى إحدى جامعات الجنوب فى فرنسا .. وكان قد مضى علىّ ثلاث سنوات تقريبا .. كان أبى يرسل إلىّ بالمال .. وكنت أقيم مع أسرة كأنما رسمها الله من أجلى .. سيدة أرمل لها معاش صغير وبنتان لها .. إحدهما كانت معى فى الجامعة .. كانت تقرأ لى .. كان اسمها « جوليا » وكان صوتها يحمل ملامح عجيبة قريبة من صوتك .. منى المنشاوى .. إننى الآن أتكلم عن رجل غيرى بدليل أن القوام واللون تغير والشعر تغير والدنيا كلها تغيرت .. لكن الرجل الذى أتكلم عنه رجل غيرى بدليل أن القوام واللون تغير والشعر تغير والدنيا كلها تغيرت .. لكن الرجل الذى أتكلم عنه يحمل اسما مشابها لاسمى دعانى للتعاطف معه كما كنا وكنتم بطبيعة الحال تحبون من اسمه على اسمكم .

وسكت قليلا .. ودخل عم خير بشراب تفوح منه رائحة القرفة ورائحة ثرية أخرى ، هتف فتحى سالم : « هل هو السحلب » ؟!

فقال الرجل بطريقة من يختم الصلاة : الحمد لله علي نعم الله .. ولمن يقدم إذا لم يكن للسيدة منى هانم ؟

ثم ما لبث أن انصرف وبقى الفنجالان يرسلان عبقهما نحو الجالسين وأخذ فتحى يتكلم :

ـ جوليا .. (وابتسمت منى فشعرت أنه يناديها) نعم .. كانت تقرأ لى .. وتذهب معى إلى الجامعة ، وتعود معى ... وفى بلاد الجنوب تبدو الطبيعة هناك مثل حسناء عالمية .. فيكاد الزهر ينمو فى الأوحال ، وترسل أشجار الصنوبر حفيفها فى الليل فيختلط هذا بأنس الدفء الذى يغطى الحجرة .

أحسسنا أننا أخوان ، لكن .. (وخبط على المخدة) اسمحى لى: الأخوة هنا معناها (الأمن) والأمن معناه عدم الخوف من العطاء ، وهذا معناه أن العطاء إذا دفع كان هو الرضا كل الرضا والسعادة غير ذات الحدود .

ـ جميل ..

ليس هذا هو المهم .. المهم أن شتاء سنة ١٩٣٩ جاء .. وبدأت نذر الحرب .. وكان أمامى لكى أتم دراستى بضع سنوات .. وكان الكرسى قد استقر بى فى المسكن والدنيا والجامعة .. لكن .. آه أيتها العزيزة .. قولى لى : هل فقدت وقارى ؟ . نسينا سحلب عم خير ..



هيا نشرب .

فناولته فنجالا .. فلمست يده يدها .. كاد كل منهما أن يستقر حيث هو .. سبابة تلامس سبابة ويبقى كل شىء معلقا فليس شىء بعد ذلك مهما .. وذكرت منى ليلة السيارة والأغنية الفرنسية ليلة عودتهم من نيلا الدكتور أمين .. على أن الموقف ما لبث أن انقضى .. واستطرد :

ـ كنت أقول : واستقر بى الكرسى فى المسكن والدنيا والجامعة .. لكن .. فى الوقت الذى كان فيه نساء العالم مشغولات بنسيج التريكو أو تنفصيل الملابس للأطفال والكبار .. كان هناك رجل يعتبر برميلا من الخمر الرديئة هو « هتلر » ، وهذه الخمر عبئت منها زجاجات صغيرة هربت إلى بعض أركان الدنيا .. هذا الرجل كان يعد للخريف والشتاء فى ذلك العام مدافىء جهنمية غير تلك التى تشغلها السيدات أو تلك الخيوط ذات الألوان البهية التى نسجنها من أجل الأطفال .

زجاجات من هذا « البرميل » أخذت منك زوجك .. وزجاجات منه أيضا فصلت بينى بين « جوليا » صديقتى .

وسكت .. وجعل يرشف الهواء من فنجاله الفارغ .. يرشفه مرة بعد مرة ثم قال لها باسما : هذه عادتى أرشف الهواء وأشرب روائح الأشياء من كل شراب أعتز به

القاهرة فى يونية ١٩٧٠

رقم الايداع ١٥٤١

الترقيم الدولى ٩٧٧



الثمن ٢٥٠ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه